فريق متميزون
E-BOOK

المهنـد حيدر
Almohannad Heidar

Damas qui porte un casque

دمشق التي ترتدي خوذة

رواية

دار نينوى

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

دمشق التي ترتدي خوذة

(رواية)

المهند حيدر

عن الرواية..

تهتُ في متاهة الأسماء دون أن أستدل على صاحبة الشفاه، فرميت بنفسي متهاوياً من تعبي على الصوفا الحمراء التي ضمتني منذ بداية الحرب كأنثى مخلصة، دون أن تحتج يوماً على بقية الإناث اللواتي قاسمنني إياها. ملتُ برأسي للخلف فرأيتها قرب الباب، رأيتهم، حنان، لارا، رند، مروة، وكلٍ الأسماء التي احتوتها روايتي، أو تاهت في طيات السرد. نهضت متهالكاً، لأقترب وألمس بأصابعي الأسماء المكتوبة على الورقة الملصقة على حائطي، وأنا أقرؤها واحداً تلو آخر كما لو أني أحييها من موتها بترتيلي. لكن اسمي ليس مكتوباً، أنا الذي هو الآن هنا، لستُ ميتاً بل أنا حيٌّ، وإن لم يكن اسمي هنا معكم. أنا أنتم. أنا الورقة الملصقة على الجدار بأسمائكم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإهداء..

إلى ك..

وجيلها القادم

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لمحتهم يهرولون في العواصف الثلجية
نصفهم معاطف
ونصفهم عباءات
يرشقون الوحل بنعالهم كالرصاص
وكل منهم يشبك
أصابعه فوق رأسه
ويصرخ:
النجدة.. النجدة
أنا دفتر
أنا ثائر
أنا كاتب عدل
أنا هاتف
أنا ساعي بريد
وأنا أجثم على جدران المدينة
كسلم الحريق

محمد الماغوط

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1

أوراق الرواية

«لست متأكداً هل أنا موجود أم لا، أنا كل الكتّاب الذين قرأت لهم، وكل الناس الذين قابلت، وكل النساء اللواتي أحببت، وكل المدن التي زرت.»

بورخيس

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أُغلق الباب بقوة جعلتني ومن حولي نرتج مستيقظين من استرسال أحلامنا، بعد أن كادت عيناي تُغمضان بسلام على منظر البيوت الفقيرة المتلاصقة والمصفوفة كحرس إلى جانب الأوتوستراد الذي شق وئامها قبل سنوات قليلة، فترك بعضها بأجزاء غير مكتملة، كانت يوماً ما غرفاً ينام فيها أفراد عائلات لجؤوا إلى ما تبقى من غرف، حين صعدت رند فجأة إلى الحافلة البيضاء الصغيرة، التي كنت أستقلها ليلاً في طريق عودتي إلى المنزل في ضاحية صحنايا جنوب دمشق.

كانت تتلفت حولها، وفي الوقت نفسه تُشع عيناها الخضراوين بسعادة، كمن يريد أن يَعلَم الكون كله بما قام به، دون أن يُصرح ولو همساً. سَألتني إن كان هنالك من ينظر نحوها بعد أن جلست بجانبي. هذه الكلمة «ينظر» كانت تحتمل عدة معان حسب الموقف، وفي هذا الموقف كان القصد الذي تريده من الكلمة هو إن كان هنالك من يراقبها. ربما رجل أمن ما يطاردها، حتى ولو كان وهمياً، فالحالة لن تكتمل إلا به. «يطاردها» أعتقد أن هذه الكلمة التي كانت ستفضلها. نقّلتُ عينيّ بين الوجوه المنتظمة في الحافلة. كان البعض نصف نائم، أما البقية فصامتون كما هي أعراف الركوب المترسخة عبر السنين في هذه العلب المعدنية البيضاء الصغيرة التي لا تتسع حتى إلى حديث.

رند ابنة الجارة الشيوعية القديمة لأهلي في مدينة سلمية، القادمة من بلاد لم تعد موجودة على الخرائط، لم أكن قد رأيتها منذ عدة سنوات. تماماً منذ ابتلعتنا دمشق تتابعاً، كعادتها مع أبناء مدينتي وأخواتها من المدن الصغيرة والقرى فور انتهاء مراهقتهم كصاحبة نُزل عتيقة. كانت آنذاك مجرد طفلة بشورت أحمر تتعارك مع صبيان الحي الذين يحبون جذب جديلتيها الشقراوتين الطويلتين، وهي تشتمهم بخليط من لغتي والديها قبل أن يعودوا جميعاً للعب سوية. في هذه المصادفة التاريخية اكتشفت أنها تسكن في الضاحية الدمشقية ذاتها التي أسكنها. كان من الممكن أن يمر هذ اليوم بشكل عادي لولا أنه سيُثبَّتُ تاريخياً كبداية مرحلة جديدة لهذا البلد، معبأة

بالأسئلة التي تبدأ بـ «كيف حدث ذلك؟» وحتى «كيف سينتهي؟»، وما بينهما من ركام الأسئلة التي ستثقل الذهن وأهمها: كيف نحيا؟ وكيف نموت؟

هَمَستْ رند وهي تزيح خصلات شعرها القصير إلى ما وراء أذنيها، كاشفة عن قرطين صغيرين مزينين بياقوتتين حمراوين:

– كنت بساحة التحرير..

قفزت إلى خاطري صورة ميدان التحرير الشاسع في القاهرة، الذي كان يمتلئ قبل شهرين بالحشود ويضج بالمعارك. لكن بقية حديثها أعادتني من القاهرة إلى الشام.

– ما كنا كتار. يمكن يكون في حدا ملاحقني..

سيكون علي بعد عدة سنوات إعادة صياغة جملتها:

– لم نكن كُثراً. ربما هنالك من يلاحقني، أو يطاردني.. ربما.

ستفضل الكلمة الأخيرة بالتأكيد.

تحرير الشام لا تتقاطع في شيء مع تحرير القاهرة سوى بالاسم، فهي ساحة صغيرة تكاد تكون هامشية. هي ليست ساحة الأمويين أو العباسيين، أهم ميادين دمشق. حتى أن سائقي التاكسي يسمونها دوار التحرير، إذ ليس فيها من متسع سوى لدوران السيارات. كما أنها لا تحوي أي مَعلم مهم سوى فرع المخابرات القريب منها. يتوسط الساحة ثلاثة أعمدة رمادية لا يفهمها أحد، وكلٌ يسميها حسب مرجعيته، إلى درجة أن البعض يطلق عليها اسم خوازيق التحرير، أما الشباب فيتندرون عموماً بشبهها بالأعضاء التناسلية الذكورية، بينما يرى آخرون في رؤوسها وجوها تجريدية شاحبة كوجوه الموتى. لم تكن هذه المصطلحات وليدة اللحظة، بل كنت أسمعها طوال ما يقارب من عشرين عاماً قضيتها في غربة هذه المدينة النُزل.

إذاً هو تقاطع الاسم! التحرير. أم أن فرع الأمن المجاور كان هو الدافع لاختيار هذا المكان من قبل هؤلاء الشباب المنسيين في هامش الوطن؟ ربما هنالك سببٌ آخرٌ، لكونها تقع وسط دمشق مثلاً، إنما في مكان منسي تماماً. في دمشق لا يوجد ميادين ولا حتى رحابة القاهرة. مع ذلك يبدو أن كلاً منهم قد عاد إلى بيته هذه الليلة، أو هذا ما تمنيته وأنا أزيح من خاطري نهايات متوقعة، لا أعرف تماماً إن كانت قد حدثت.

عرضت على رند إيصالها إلى منزلها فشكرتني وأطرقت برأسها. ذلك شجعني لأدعوها لقضاء الليلة في منزلي. كان ذلك سيبدو ضرورياً لإكمال الحالة، ولتصبح تجربة اليوم حكاية، فلا حكايات بلا شهود. وسأكون الشاهد

الذي يوثق ما حدث، ويؤكده ويرويه كحال حكايات العرب في العصور الشفوية، لا حكاية تحيا بلا راو. سيكون بإمكانها لاحقاً على الأقل، كلما شكك أحدهم بروايتها أو تفاصيل ما حدث معها، أن تذكر اسمي وتقول: اسألوه! هو يعرف. عدا ذلك، هنالك أهمية خاصة لهذا الجزء من حكايتها، تفصيل «الهروب من المطاردة»، فمطاردتها وأن يكون هنالك من يلاحقها هي حجتها قبل أن تكون حجتي. وإن كان ما يحدث اليوم سيصبح حكاية، يتحول فيها المضارع إلى ماضٍ، فلا بد أن تكون هذه الحكاية مكتملة التفاصيل. فالمطاردة العظيمة تحتاج هروباً عظيماً، وليس عودة مسائية كلاسيكية إلى البيت، بتواتر روتين الحياة اليومية. ثم أن بها جوعاً لتروي ما جرى معها هذا المساء، جوعاً لن تعرف كيف تشبعه إن عادت وحيدة الآن بين جدران منزلها، في ليلة البلاد الاستثنائية هذه.

ذلك كله كان يبدو في عينيها. ربما، أتساءل، ربما نعم. وأعود أشك الآن. ربما أنا الذي يرى أكثر مما هو في الصورة. ربما أنا الذي أكمل لوحتي الخاصة خارج إطارها هي. ربما، ربما حكايتي تحتاج رند الآن، لتكون حكايتي. ربما أنا الذي أحتاج شاهداً. ربما، ربما متكررة ومكرورة، لدرجة مملة ومشوقة في ثعبانية الأسئلة الملتوية التي تتموج في الدماغ، في حبكة تتشعب إلى خطوط كثيرة كلما استفزني تفصيل ما وجعل كلمة «ربما» تقفز إلى الذهن.

توقفت الحافلة لتنزلنا بعد الموقف بقليل. لم ينظر نحونا أحد من الركاب ونحن نُخلي مقعدينا بينهم، فقد كان كل منهم يحمل تعب يومه وهو عائد إلى منزله غير مكترث بشيء مما يحدث، ما عدا الشباب الذين نظروا بتلقائية إلى مؤخرة رند المختبئة خلف قماش الجينز الأزرق وهي تغادرهم، بينما كانت رند تنحني لتخرج من الباب الواطئ للحافلة الصغيرة، في تفصيل اعتيادي يتقبله الجميع كإحدى المتع الجمالية القليلة في الحياة للمحرومين. أخبرتني بأنها جائعة دون أن يفاجئني ذلك. أخذنا دون عجلة بعض الأغراض من دكان مجاور ثم غصنا في الشارع الجانبي الممتد بين رصيفي روضة الأطفال الكبيرة والمقبرة الأكبر، وصولاً إلى منزلي. لم تكن عادة انقطاع الكهرباء لفترات طويلة قد بدأت بعد، ومع ذلك فقد لفنا الظلام.

بدوت مرحاً فور دخول شقتي، كعادتي في مثل هذه الحالة. جلست هي على الكنبة المتصدرة للصالون كما لو أنها حكواتي يتأهب لسرد سيرة بطل همام ما. بدأتْ بجملٍ متقطعةٍ تختبر اهتمامي بتفاصيل أحداث يومها، بينما كنت أنا أبدل ملابسي في غرفة النوم المجاورة للصالون، دون أن يبدو مني أي شيء يدل على الاهتمام، أو عدمه. بحثت بين ملابسي عما يمكن أن يناسبها وأنا أخمن كم بَلغت من العمر اليوم، ثمانية عشر أو عشرون عاماً، سأقول تسعة عشر. كنزة رياضية زرقاء واسعة وبنطلون بيجاما رمادي. كانت ستبدو بهن

جميلة، أو ربما مغوية كما خمنت بجسدها الصغير. وضعتهم على حافة السرير وخرجت نحوها وهي ما تزال تتابع جملها المتقطعة، تمتحن صمتي دون أن تكتشف هل سأهتم بسردها أم لا. وقفت أمامها بابتسامة مشجعة لأقول لها أني أحب أن أسمع كل شيء بالتفصيل، برقت عيناها، إنما دعينا نحضّر طعام العشاء وبدلي ملابسك أولاً. بدا كلامي ككتلة عرض واحد، إما أن يُرفض كاملاً أو يُقبل كاملاً. تحججت أنها مرتاحة في ملابسها، فقلت لها إجابتي التقليدية وأنا أتحرك بخفة في الشقة لأمنحها بعضاً من ألفة الأمان، بأني لا أرتاح عندما يكون لدي أحد بملابس الخروج بينما أرتدي أنا البيجاما.

– ثم إنك ستنامين هنا في النهاية، ولا يمكن أن تنامي بملابسك هذه.

قلت ذلك كحقيقة علمية لا تناقش. الخشب يطفو فوق الماء، والمعادن يزداد حجمها بالحرارة. أحب ما علمتني إياه اللغة العربية: في مثل هذه المواقف لا تستخدم جملاً خبرية، أي من تلك التي يمكن الإجابة عليها بنعم أو لا، بل استخدم جملاً إنشائية، من نحو خطابات الزعماء التي هي دوماً عبارة عن جمل لا تحتمل أن تقول إزائها وأنت تسمعها: لا أو نعم، بل تأخذها فقط كحقائق تتسرب إلى جسدك ودماغك ومن ثم حياتك كالأدوية. يا لحنكة علم البيان في التفريق بين الجملة الخبرية والجملة الإنشائية. أشرت إلى المكان حيث تركت لها الملابس بطريقة اعتيادية لا تظهر أية نوايا خفية، ثم توجهت إلى المطبخ وقلت لها: غيري ملابسك واتبعيني.

بينما كنت أفتح علبة التونا بعد دقائق، دخلت رند إلى المطبخ. ألقيتُ نحوها نظرة سريعة. كانت بالفعل تبدو جميلة ومغوية بملابسي الواسعة عليها، رغم قصة شعرها الصبيانية. أكملت صراعي مع علبة التونا الغبية التي لم تكن لتنفتح بسهولة، متقصداً عدم التمعن بجسدها كي لا تتوجس من شيء. لكني مع ذلك نظرت إلى قدميها الحافيتين إلا من جوربين أبيضين مخططين بألوان مشرقة تتبعثر ما بينها قطط وردية، وضحكت. قلت لها أن تذهب لتضع قدميها في شيء ما من خزانة الأحذية. رفضَتْ مخمنة أن جميع ما لدي لن يلائم قدميها الصغيرتين.

أثناء تقطيعها البندورة لصنع سلطة سريعة، بدأتْ بسرد كل ما حدث معها ذلك اليوم. لم يهمني مما حدث سوى الحَدث ذاته، ومع ذلك قلت لها «مشدداً» أنني أريد سماع كل شيء من البداية، وبالتفاصيل الدقيقة. كنت أريد أن أعطيها فرصتها للتعبير عن نفسها في ذلك اليوم، عن إعادة اكتشافها لنفسها وصوتها. فرصة لحكاية تريد منذ اللحظة أن ترويها، وأن ترددها لسنوات طويلة، أن تتمتع بإعادة كل تفصيل فيها في كل مرة. كنت أعرف أن ذلك سيجعلها أكثر مرحاً وأقل تكلفاً، وسيجعلني موضع ثقة، اليوم على الأقل،

فتتكسر المسافات ما بيننا. وفي الوقت نفسه لم يكن لدي ما أقوله أنا. إذاً من الأفضل أن تتحدث هي، وأن أكتفي أنا بالابتسامات والنظرات المشجعة.

على الصوفا الواسعة بلون القهوة تربعت رند مشابكة ساقيها، وكأنها تحيا يومها من جديد بأدق التفاصيل، متأهبة للسرد وهي تزيح خصلات شعرها الأشقر المنفلتة وراء أذنيها. كنت آكل ببطء دون أن أقاطع كلماتها اللاهثة، ودون أن تتوقف شفتيها عن عبِّ الأوكسجين بحماس الحاجة. ذهبتُ إلى المطبخ وعدت بكأسين وصحن من الكاجو، ومرة أخرى لأعود بقالب ثلج وزجاجة فودكا، وثالثة بعد ذلك لأحضر منفضة سجائر وعلبة من عصير الكريفون. في كل مرة كنت أدخلُ المطبخ بها كانت رند ترفع صوتها لتتأكد من عدم تفويتي لأي تفصيل من تفاصيل حكايتها المشوقة. قمت بملء كأسين لها ولي، كما لو أنه فعلٌ على هامش السرد. ناولتها كأساً ثم قرعت كأسي بكأسها وأنا أقول:

– بصحة اليوم.

برقت عيناها الخضراوان مجدداً بخليط من نشوة اكتشاف أن هذا اليوم يستحق بالفعل نخباً، ومن تشكك بجديتي في ما أقول. وضعتُ حبة كاجو في فمي، واتكأتُ على مسند الصوفا التي نتقاسمها كراوية ومستمع مشجعاً رند على المتابعة:

– وما الذي حدث بعد ذلك؟

بعد ذلك.. هل تكفي حقاً ليلة واحدة لسرد ما حدث بعد ذلك! ومهما كانت شهرزادي ماهرة، هل ستستطيع بصوتها المبحوح من الهتاف أن تروي الحكاية التي بدأت للتو؟ فتنسجها بشفتيها وأصوات من يعيشها خصلة خصلة، كجديلة تضمنا معاً.

– في صور يا رند؟

– أية صور؟!

قالت متفاجئة.

– ما صورتوا؟!

– لا.. اللي صار صار، شو أهمية الصور.

سيبقى إذن الدليل الوحيد على هذه الحكاية التي حدثت في النصف الأول من آذار 2011 ما قالته رند بنَفَسِها المختلط برائحة الفودكا وطعم الكاجو. وسأبقى أنا الشاهد الوحيد ربما. دون أن أتأكد تماماً متى بدأت الفودكا تسري في صوتها وجسدها، لتجعلهما أكثر حرية وتعبيراً، وأشد جموحاً وخيالاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

أنهيت السطر الأخير من الورقة الأخيرة، ثم رفعت رأسي نحو سالم، صديقي البعيد الذي كان يُشعل غليونه لأقول له: – شو هادا؟!

أكمل إشعال غليونه دون أن ينظر إلي وهو يقول:

– روايتك.

– لكنها أكثر أدبية مما كتبتُ! شو اللي عملته محررتك بها!

– هذا دور المحررة أن تُعلي من سوية الرواية. ما بدك تنافس على البوكر!

لم يكن يهمني أن أجيب على ابتسامته المستفزة بتعارض مع جمله التي يفترض أن تكون مطمئنة، لكني طبعاً لم أصمت.

– لا تهمني البوكر، ولا أظن أنه من الممكن أن أفوز بها على كل حال. حنان صبيتك هذه أعادت كتابة الرواية ولم تحررها.

ضحك بصخب مطلقاً دخانه في كل صوب وهو يقول:

– ما بدك تكون روايتك الأولى جيدة ومتينة! حنان خبيرة بالبناء وبالسرد. هي كانت حنونة مع روايتك حتى وضعت فيها من نفسها. ثق بي، هذا للرواية أفضل. نحن نريد أن تكون الرواية أحسن على كل حال.

انقشع ساتره الدخاني لأراه وهو يعالج غليونه وينظفه ويكبس تبغه فيه، قبل أن يعود إلى إشعاله وأنا افكر في كلمة «أحسن» التي قالها. ربما كان علي أن أفكر في الجملة كاملة: – «نحن نريد أن تكون الرواية أحسن على كل حال».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

لم ينظر إلي رشيد. بقي منشغلاً بهاتفه الجوّال ومحادثاته على الماسنجر. انتظرت لدقيقتين أن يقول شيئاً، وفي النهاية نبهته: – شو؟

– شو! شو!

– كنت عم تسمع؟

– بالطبع؟

قلت له متشككاً:

– أعجبتك؟

ضحك ونظر إلي للمرة الأولى منذ بدأت قراءة الفصل الأول: – تبدو أحسن مما حدث معي.

«أحسن»، تذكرت جملة سالم التي انتهى بها حوارنا اليوم.

– إذن فأنت موافق؟

ضحك مجدداً وهو يقول:

– على شوا! اكتب ما تشاء يا رجل.

أردت أن أحفزه قليلاً، أو أن أستثير سلبيته في الحوار فقلت له: – لكن هذا مو تماماً ما كتبت. هذه نسخة مُحرَرَة، أي بعد اللمسات التي وضعتها المحرِرَة على النص.

– مين المحرِرَة؟!

– اسمها حنان، تعمل كمحررة في دار النشر اللي رح تنشر الرواية.

– حلوة؟

– ما بعرف. ما التقيت بها. ولا أعرف حتى عمرها.

– طيب، ربما في المرة القادمة لازم أنصت لك بشكل أفضل لأتبين جمالها.

قلت بخيبة:

– هذا اللي يهمك فقط! إذن فأنت لم تكن تنصت.

– وليش أُنصت! أنا أعرف الأحداث، فأنا من حَصلَت معه. وإن كانت تبدو من خلال ما سمعت أكثر رومانسية، أو خليني قول متل ما بتحبوا، أكثر

«رومنتيكية».. بكثير مما حدث في الواقع.

أجاب صمتي بابتسامة حادة، لا أعرف إن كان وصفها بالخبيثة يعطي المعنى المراد وهو يردف: – هلأ بتعرف، ربما لو حدثت بهذا الشكل لكانت أجمل.

– إذاً فأنت موافق على الحكاية بهذا الشكل والصياغة.

– موافق.

قالها وهو يكتب شيئاً ما لإحدى صديقاته الكثيرات على الماسنجر، دون أن يزيح عينيه عن شاشة هاتفه. اعتبرت جوابه هذا وكلمة «موافق» حسماً لقرار لا رجعة فيه، ولا أستطيع اتخاذه أنا بمفردي. ليروي هو كما يشاء، ولأكتب أنا ما أشاء، ولتحرر حنان الرواية كما تشاء. ففي النهاية حكاية مثل حكايتنا الواسعة التي نعيشها هي حكاية جمعية، من حق كل شخص أن يضع فيها من نفسه ما يريد. ومن حق كل هؤلاء الأشخاص أن تتحدث عنهم وتشبههم. لتصبح حكاية ناس وشعب. إنها ديمقراطية سرد الحكاية.

ضحكت بصوت عال وأنا أتذكر شارداً عنوان مقال كتبته عام 2002 وأنا في منتصف العشرينيات من عمري في جريدة لا يقرؤها أحد: «ديمقراطية الكتابة». ربما الآن ديمقراطية الرواية والحكاية. لكن رشيد نظر إلي مستهجناً ضحكي وأنا شارد، قبل أن يعود لعصفورته الشريدة بشبكته الرحبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

مضى أسبوع طويل، ولم أكتب شيئاً يُسرِّع من بطء مروره. جعبة رشيد لم يكن فيها سوى هذه الحكاية. ربما لم يُثر اهتمامي ما قصه علي من أشياء أخرى. بدت لي قِصصاً.. متسلسلة فقط، أشبه بأعداد سلسة روايات متخصصة في لون واحد تكرر ذات الثيمة والمعالجة في كل مرة. إنها بالفعل مجرد «سردات» كما يحب أن يطلق عليها. هذا جعلني أقتنع بأن بقية ما في جعبته لا يصلح أبداً لاستكمال الرواية. الخيبة هذه قادتني إلى شعور ضمني بأن علي أن ألتقط حجراً ما من حياةٍ ما لألصقه في فجوة هذه الفسيفساء الكتابية. لكن، أين أجد مثل هذا الحجر الملون البراق؟ أين.. سوى في هذا البحر البشري الذي يتلاطم فيه عشرون مليون سوري يومياً. وكيف أشذبه لتتناسب أطرافه مع بقية الأحجار مشكّلةً اللوحة الكلية؟ إنما كل حجر وحكاية بلونهما الخاص!

كنت أسأل وأجيب نفسي. هذا ما كنت أفعله عادة، خاصة خلال الأيام التي كنت أكتفي فيها بالاستيقاظ متأخراً، والإجهاز على يومي بحالة من التشوش الكئيب من الأسئلة-الأجوبة الذاتية إلى أن أنام. لأعاود في اليوم التالي نفس السيرورة المتكررة. الجديد فقط في هذا اليوم هو رسالة على بريدي الإلكتروني من حنان تستعجلني بأن أرسل لها بقية ما كتبت. حنان، أحسستها في تلك اللحظة كمن يطاردني، كمن يضغط علي. محررتي التي تقيد حريتي بسلسلة إليها، حارس يقف في وجهي ممسكاً بوعاءٍ من التوتياء لأعتصر رأسي فيه. أنا لست بقرةً حلوباً! كدت أكتب لها ذلك، لكني خمنت أنها امرأة عملية، ولن تفهم تعبيري هذا. امرأة تؤمن بأن الخباز يخبز العدد ذاته من الأرغفة كل يوم، والدجاجة تبيض بيضة كل صباح. ربما وببساطة هي امرأة حريصة على عملها الذي تتقاضى عليه أجرها، وربما حتى على روايتي، وتتعامل معها بجدية تفوق جديتي أنا، وبالتالي ربما علي أن أشكرها أيضاً على ذلك.

– شكراً حنان.

كتبت ذلك وأرسلته لها، فقط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

5

في المقهى الصغير الذي يقع على زاوية ساحة عرنوس، جلست أحتسي قهوتي نهاراً، مثلي مثل بقية من توزعوا حولي، في مزاج متماوج وملتف كلوحة لفان غوغ. لربما بدونا كذلك على الأقل في عيون المارة من خلال الزجاج المتسع كشاشة، وهم ينظرون إلينا حين يلتفون على هذه الزاوية المزدحمة. بمزاجي هذا، كنت وحدي من يبدو كذلك ربما.

بقي هذا التشكيل أحد طقوسي الفرنسية القليلة التي تمكنت من الحفاظ عليها هنا في الوطن بعد عودتي من فرنسا، «فنجان قهوة في الكافيه ترتوار» أو مقهى الرصيف إن عرّبناه. لكن، عدا العنوان العريض هذا الذي أضعه إرضاءً لنفسي بلمسة فرانكفونية، لا شيء حقيقي يشبه الكافيه ترتوار، فالجالسون حولي لا يوجد بينهم فتاة خرجت لتُشبع ساقيها الممتدتين كأملٍ تحت تنورة قصيرة من شمس شتائية، بينما عينيها تحتجبان بنظارة بنية تخفي نظرات الناس عنهما، ولا هنالك عجوزان خرجا ليقضيا ملل الصباح المتكرر يومياً في إطعام الحمائم الكثيرة. لا هدوء، ولا جمال. كل ما كان حولي هو مجموعة من الكروش الذكورية والأنثوية المتبعثرة، تنوء بها الكراسي. أناس يتحدثون بصخب وهم يناقشون أموراً حياتية تافهة، أو يجلسون يحدقون في مكان لا نهائي كما يُفترض، لكنه ينتهي على أبعد حد عند المبنى المقابل، فحقيقة.. لا أفق ممتد هنا. زحام سيارات وأبواق، ولاسلكي مثبت على دراجة شرطي السير يصدح وحيداً، بينما الشرطي يبتعد وهو يحرر سيلاً من المخالفات بالتتالي لرتل السيارات المتوقفة قرب الرصيف. «فنجان» كما هو الاسم الذي يعلوه، أو ربما الأفضل أن أسميه كغيري «مقهى الزاوية»، لا كافيه ترتوار ولا ما يحزنون. ذلك وإن خفف متعتي الوهمية، فإنه وفي المقابل سيخفف غربتي الحقيقة. سيخفف، لأني أفضل أن أستخدم الفعل مع سين التسويف، كون ذلك لم يتحقق بعد، على أمل أن يكون للتسويف مفعول «الباراسيتامول» المسكّن.

الشاب الوحيد الذي يجلس في الجهة الأخرى من المقهى أثار اهتمامي قليلاً. كان يدخن سيجارة حمراء طويلة كاملة مع كل رشفة من فنجان قهوته الذي لا يستعجل إنهائه على ما يبدو، ناظراً إلى مكانٍ وحيدٍ دون غيره. حاولت أن أتبين المكان. أظن أنه إشارة المرور التي تقع بعيداً في الجانب الآخر من الساحة. إشارة مرور ساحة عرنوس هذه، الشهيرة باسمها، ليست مجرد إشارة مرور عادية، فهي موقف يترجل فيه ركاب الحافلات الكبيرة منها والصغيرة، ليتفرقوا متباعدين في كل اتجاه. وهي المكان الذي يتواعد فيه الكثير من الناس ليجتمعوا، كونها تقع على ملتقى عدة شوارع. لا بد أنه ينتظر أحداً، لا بد أن له موعداً مضروباً قرب هذه الإشارة المتفردة بأنِ لها اسماً

دون غيرها من إشارات مرور دمشق. أو لا بد أنه يرتقبُ مروراً طارئاً لمن اعتاد الوقوف هناك، وأن الذكريات تسيل الآن من أضواء إشارة المرور المتتالية لعينيه، أحمر، برتقالي، أخضر. ذلك يعني أن لديه حكاية ما قد تنطلق، خمنت، وفي الوقت نفسه تشككت بسذاجة تحليلي. لكن الحياة في بعض الأحيان تكون أكثر سذاجة وأقل تكلفاً من الرواية بكثير. أليست الرواية، والأدب والفن عموماً، تقوم على التكثيف. ذلك يعني في ما يعنيه أن الحياة أقل تكثيفاً، وبالتالي أكثر بساطة، وحتى سذاجة.

مضيت إليه لأستعير ولاعته. حجة ساذجة تليق بموقف ساذج وحكاية ساذجة. أشعلت سيجارتي وأعطيته سيجارة أخرى كشكر. كان من الطبيعي أن يدعوني بتقليدية سيرورة خط الفعل المتصل للجلوس. وحسب التسلسل المنطقي التقليدي لخط حدث كهذا في الحياة، كان يجب أن أشكره وأعود إلى طاولتي، لكني شكرته وجلست على الكرسي المقابل له، قاطعاً الخط الوهمي الممتد لمسافة مئتي متر من عينيه إلى إشارة المرور، بعد خمسين سنتيمتراً منه فقط. بررت ذلك في نفسي بأن الحياة تخترقنا أحياناً بمفاجآت لا تكسر منطقها، وعليه أن يحتمل كونه ضمن هذ المنطق، أو على الأقل عليه تحمُّل فكرة أن الحياة تحوي أناساً فضوليين «كثيري الغلبة» كما نسميهم، حتى لو لم أكن أنا بالفعل منهم. ما كان يهمني فقط هو أن تعلق حكايته بصنارتي، ومن ثم إما أن أضعها في سلتي وأعود مبتهجاً بصيدي، أو أعاود رميها في تيار النهر البشري المتماوج بحكايات لا تعني أحداً، تموت بموت أصحابها، أو بقتلهم لها. لدهشتي، لم ترتسم الدهشة في عينيه حين جلست أمامه، لا بد أنه فقدها في مكان ما، أو زمان ما.

في نهاية جلستنا وحكايته، قلت وأنا أدفع الحساب للنادل:

– وما قصة إشارة مرور عرنوس إذن؟

– لا شيء. لا قصة لدي ترتبط بها. إنها فقط تقع في النقطة الأبعد من الساحة. يقولون أنه عليك أن تنظر بعيداً كي تريح عينيك.

ابتسمت متبيناً تعب عينيه ومضيت، وعند أول خطوة لقدمي على رصيف الازدحام البشري سألت نفسي: هل آخذ رقم هاتفه لأطلعه على حكايته في روايتي لاحقاً؟ لكني قدمي الأخرى أكملت خطواتي مجيبة: ما المهم. ربما من الأفضل أن يظن أن حكايته أيضاً لا تعني أحداً، وأنها ستموت بالتقادم، ثم تنتهي بنهايته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

6
أوراق الرواية

«أهذه هي الحياة التي كنت أركل بطن أمي لأجلها.»

زبون في مقهى فنجان،

دمشق (عن العامية).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل عام تقريباً من ليلة البلاد وليلتي مع رند، جلست في الغرفة الصغيرة جداً التابعة للأمن، المتطرفة وحيدة في موقعها ضمن أسوار شعبة التجنيد الرحبة في مدينة حماة، أملأ الاستمارة المؤلفة من صفحات عديدة. توقفت طويلاً أمام الخانة التي تطلب تدوين أسماء أعمامي وعماتي، وأخوالي وخالاتي، وأزواج وزوجات كل منهم فضلاً عن انتماءاتهم السياسية. أغلبهم كان قد توفي، ومن البقية الحية قسم كبير لا أعرف أسمائهم الحقيقية، أو أسماء أزواجهم وزوجاتهم لبعد العلاقة، كنت أعرفهم فقط بألقابهم، عمتي أم رياض، وأم حسن زوجة خالي فؤاد، فما بالك بانتماءاتهم السياسية وهم في أغلبهم من المزارعين في القرى. كتبتُ ما أعرف، وشردت طويلاً دون جدوى، منتظراً نزول ملهمة الأسماء والانتماءات الحزبية علي. وبإدراك اللاجدوى، أمسكتُ الموبايل واتصلت بابن عم لي كان مثلي لا يعرف شيئاً، لكنه أخذ الموضوع بجدية، ربما لكوني لا أتصل به إلا نادراً وفي حالات جدية جداً، وربما لكونه لا يزال يعيش في مدينة مسقط رأسي «سلمية» التي غادرتها قبل أكثر من عقد ونصف. عدت مطرق الرأس على الورقة، وفي النهاية كتبت أسماء من تذكرت فقط مشككاً في صحة بعضها، ومشككاً إن كان هنالك من سيقرؤها أيضاً. أما الانتماءات السياسية فقد وزعتها حسب تخميني ما بين حيادي وحيادي إيجابي، حسب موسيقية الأسماء.

ضحكت خلسة في سري. تذكرت شيئاً لا أجرؤ على كتابته، ولا أريد لأحد أن يعرفه. ضحكت أكثر، وكنت سأضحك مراراً وأنا أخمن العيون الواسعة المحيطة بي والمتسائلة عما أتذكره ويضحكني، لو نظرت إليها. لكني كنت وحيداً في الغرفة الفارغة.

أنزلتنا الحافلة القديمة المكتظة بريفيي مدينة حلب أمام كلية المشاة العسكرية، حيث سأمضي الدورة التدريبة لعدة أشهر في بداية خدمتي العسكرية، بعد أن قادتنا من دوار الشعار في المدينة. قال صديقي نزار:

– لندخن السيجارة الأخيرة في حياتنا.. المدنية.

أشعل كل منا سيجارته، ومججنا دخانهما بقوة ونحن نملأ رئاتنا بهواء حر لن نتذوقه في الأيام المقبلة. هواء خال من الغبار والأوامر وصرخات الإهانات والروائح المقززة. لم يتركنا رجال الحرس الواقفين على البوابة نكمل سيجارتينا الوداعيتين لحياة مختلفة تركناها في دمشق، بل زجرونا وهم يأمروننا أن ندخل. ربما أزعجتهم بقية المدنية العالقة بملابسنا وضحكاتنا. المدنية، لا بمعنى الحضارة، بل بالمعنى المناقض لكل ما هو عسكري. كل من قاده قدره لتأدية الخدمة العسكرية الإلزامية يعرف هذا المفهوم الحياتي جيداً.

– ادخلوا..

.. وبصوت جاف كالبادية.

في الداخل كل شيء مختلف. ورجال الحرس هؤلاء ينتمون إلى ذلك الداخل المختلف المُغبر، ذي اللون الخاكي الموحد والملابس المموهة والوجوه الملوحة بمزيج الشمس ومُلوحة العرق والغبار، ولا ينتمون إلى عالمنا الضّاج بالحياة، حيث الملابس الملونة، وفرح الضحكات، وتقاسيم الوجوه المتفائلة، وحيث تخرج مساءً لتقاسم شخصاً ما الحياة والتفاؤل، وربما قبلة.

امتثلنا للأمر ودخلنا. لم أُكمل سيجارتي، وبقي النصف الذي لم أدخنه حسرةً في قلبي حتى اليوم، لأنه أنتزع مني انتزاعاً، وأقسمت على أن أدخن نصف سيجارة أمام هذه البوابة اللعينة حين أغادر هذا المكان الملعون. لا أذكر الآن إن كنت فعلت ذلك. ربما حين غادرته كانتْ قد غادرتني قبلاً مثل هذه الجرأة في التحدي، أو ربما فقدت الحسرة معناها. ولربما، كنت أريد أن أغادر فقط دون أن ألتفت ورائي، أو أن أسرع مبتعداً ولا أبقى ثانية إضافية، هنا في مصنع الرجال هذا.

الليالي الأولى قضيتها كما المشرد، أنام على الأرض الاسمنتية العتيقة في الصالة الرياضية المبنية كيفما اتفق كحظيرة، الواسعة والممتلئة بمئات مثلي يصلون يوماً تلو يوم، كمنكوبي الحرب المستقبلية الهاربين بحثاً عن ملجأ. وزعونا أخيراً على المهاجع، ونقّلونا مراراً من مهجعٍ لآخر، وفي كل مرة كان علي أن أحمل حقيبتي وفراشي ومخدتي والبطانيَات الخشنة وأوعية الماء وأركض لأسبق رفاقي، فأحصل على فارق ثوانٍ يمكنني من اختيار سرير مناسب يروق لي في المهجع الجديد. لم تكن المسافات قريبة، فكلية المشاة أكبر مساحة من القرى المجاورة، وسورها طويل لا ينتهي.

الرائحة العفنة التي صدمت أنفي في أول مرة دخلت فيها المطعم هي ما دوخني بشكل لا يحتمل. قُلت: علي أن أندمج، أن أتأقلم، وإلا ستكون شهوري هنا صعبة. قلت ذلك لنفسي فقط، كَسِر، لكن الجميع هنا كان يردد الجملة

ذاتها بأشكال مختلفة كنوع من المواساة الجماعية. رويداً رويداً، بدأت أستلذ بالرز غير المطبوخ جيداً، وبمرقة البندورة الحمراء الخالية من الفاصولياء أو البازلاء الافتراضية. أما البطاطا المسلوقة وشوربة العدس على العشاء، فقد كانتا تشكلان وجبتي الفاخرة، فأنا أحب طعمهما الذي من الصعب أن يختلف كثيراً بين مكان وآخر. بالطبع كان هنالك الفراريج المسلوقة الشهيرة، لم تعجبني كثيراً ولكني كنت آكلها، لأنه هنا يجب أن تأكل بسرعة كل ما يقع عليه نظرك قبل أن تقلّب الأمر في عقلك، وقبل أن يصبح ما تلمحه على الطاولة في مَعدات أو جيوب رفاقك السبعة، الذين يتحولون لأعداء شرسين لحظة تحلقنا واقفين حول طاولة الطعام الحاملة للفرائس، متأهبين بسعار جوعنا انتظاراً لصرخة إيعاز الضابط المناوب ببدء معركة الطعام.

اليوم الأول للزيارات كان بعد شهر ونصف من وصولنا هنا. وقفنا مصطفين في نهاية الاجتماع الصباحي نستعجل تِلاوة أسماء من أتتهم زيارة عبر مكبر الصوت، منتعشين بشمس أيار الساطعة ونسيمه البارد. البعض ينتظر اسمه كي يتيقن من قدوم زواره، وغيره يستعجل انتهاء ذلك كي يذهب لقضاء يوم الراحة هذا في غسيل ملابسه، أو الأكل، أو الاستحمام، أو تعبئة المياه، أو في أحسن الأحوال ممارسة لحظات كسل ممتعة ونادرة في مكان كهذا. كان يوم جمعة، يوم رؤية أناس وأشياء تنتمي إلى عالم غائب عنا منذ خمسة وأربعين يوماً كما لو أنه انتهى، عالم نستذكره كوطن بعيد لم يعد موجوداً سوى في الحكايات العابرة للأسوار، وأصبحت تفاصيله باهتة على وشك الضياع في النسيان. للبعض كانت هذه فرصة ليشم رائحة أنثى كاد أن ينساها، أو رائحة أي أنثى حتى ولو لم تكن تعنيه، كي لا يستمر جسده باليباس. لذلك كان البعض ممن لم تأته زيارة يتسلل خلسة، ليلامس بعضاً من عالم لم يعد يحيا به، ويخاف أن ينساه.

سمعت اسمي. تشككت للحظة، أو كما تقتضي اللحظة. شكي يمكن تبريره منطقياً بسبب الخشخشة القوية المنطلقة من مكبر الصوت وهو يحشرج كما لو أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، أو كما لو أنه منزعج هو الآخر، كضباط الثكنة، من منحنا هذه الفرصة الثمينة للالتقاء بعالم لا ينتمي إليه. يا له من مكبر صوت عسكري أحمق! مِلت نحو صديقي وسألته لأتأكد إن كان قد سمع اسمي، لكنه أجاب بأنه لم ينتبه، ولم يهتم، ولم يدقق بالأسماء المذكورة كونه لا ينتظر قدوم أحد لزيارته، كان منشغلاً بالتثاؤب المتواتر الضجر فقط.

انتهى الاجتماع، لكن الضابط المناوب اليوم قرر لسبب لا تعرفه سوى آلهة الخدمة العسكرية، إن كان ثمة آلهة لهذا الشيء، أن يمضي بنا إلى المطعم ويملأ بطوننا المتشوقة إلى ما جلبه زوارنا من أطايب الطعام، بالفطور العسكري المعتاد يومياً، شاي ومربى مشمش معلب وشيء ما يفترض بأنه

لبن أو لبنة. لم أفهم مغزىً ما من ذلك. دع هذه البطون المنهكة المتشوقة يا رجل تمتلئ بطعام العالم المدني اللذيذ. لم عليك أن تضيّع نصف ساعة وربما أكثر من وقت الزيارة المخصصة في الانتظار؟ هؤلاء الناس لهم أحبة لم يروهم منذ قرن، حتى ولو كان ذاك بالنسبة لك مجرد شهر ونصف، فكيف سيطيقون الانتظار كل هذه الدقائق. مالنا ولتبتّلك العسكري!

بعض همهمات الاحتجاج جعلت الضابط يصرخ بنا متوعداً، قبل أن يأمر بزمجرة حاسمة الفصائل بالتوجه نحو المطعم بالمشية العسكرية. مشية عسكرية حانقة، حانقة بمعنى أنها مرتخية وليس شديدة كما قد يبدو. كان صوت الضابط يَهدر في مكبر الصوت الذي يزداد خشيشه متجاوباً تبعاً لحنق صوت الضابط، كأن مكبر الصوت أيضاً يزجرنا بخشيشه الخاكي المموه.

وأنا أتقدم نحو المطعم، انتبهت إلى أن البعض يتسلل وحيداً أو بمعونة بعض الضباط اللطفاء، الذين يغضون الطرف غير مقتنعين بهذا الفطور الإجباري بينما الزوار وجعب طعامهم على مبعدة خمسمئة متر فقط قرب البوابة الرئيسية في الجهة المقابلة من ساحة الاجتماع. راوغتني نفسي بالمخاطرة وفعل ذلك أيضاً. أنا لا أعرف حقاً من أتى، فأمي لم أكن أتوقع رؤيتها، وهي التي أقنعتها مِن قبل بصعوبة القدوم وقطع كل هذه المسافة لرؤيتي، وأنا حقيقة لا أريد ازعاجها بكوني لم أعد أشبه ابنها الذي ودعته حين غادرها إلى هنا. من غيرها؟ إخوتي؟ لا أحد منهم في هذه البلاد. لكني لم أكن أحتمل أن يظل هذا السؤال يتأرجح في رأسي لنصف ساعة وأنا أمضغ مربى المشمش واللبنة مخلوطين ببعض. في النهاية قررتُ أن أتسلل أيضاً. المشكلة الوحيدة في التسلل أن المسافة التي علي أن أقطعها تقارب الكيلومترين. إذ أن من يتسلل خلسة من وراء المطعم، كان عليه أن يستدير حول الأبنية المحيطة بالساحة جميعها، راكضاً أحياناً وزاحفاً أحياناً أخرى، كي لا يراه الضابط المناوب المنتصب على المنصة الرئيسية المرتفعة كحاكم الأرض والسماء. يا لمتعة التحكم بألفين من المحزونين الجوعى للعاطفة في لحظة كهذه.

مرت فصيلتنا قرب أحد الضباط الذين كنا نصنفهم ضمن خانة اللطفاء، وهي خانةٌ جِدّ ضيقة هنا، لا يخرج منها الكثير من اللطف في الحقيقة، لكن على الأقل لا يخرج منها الكثير من الشر غير المبرر، أو التلذذ بالعقوبات غير المنطقية كحالنا اليوم. خرجت ومضيت إليه على عجل مؤدياً التحية العسكرية ومفاجئاً إياه بجملة لا يمكن أن يتوقعها:

– حبيبتي إجت وما فيني أنتظر أكتر لشوفها..

بَهتَ، وعلت الدهشة وجهه. لا أعرف حقيقة كيف خرجت هذه الجملة مني. لكني كنت أعرف أني لو قلت: أمي، أختي، زوجتي، خطيبتي، عائلتي، أهل

جارتي، سكان مدينتي، السوريون كلهم أتوا لزيارتي، فسيكون رده تقليدياً بأن ألتزم الأوامر وأبقى في الفيلق المرسل للقضاء على فطور الصباح. لذلك كان علي أن أفاجئه بجملة غير تقليدية في مكان كهذا، حتى لو فاجأتني أنا أيضاً.

«حبيبتي»! لا حبيبات هنا في مصنع الرجال هذا. لكن الجملة بسرعتها ومباغتتها أصابت جزءاً من قلبه لم يغطه الغبار السميك لهذا المكان، ولم تصل إليه بعد ملوحة بزته المموهة بألوانها المتشربة بالعرق. ابتسم قليلاً، بالأصح باغتت شفتيه شبه ابتسامة تسللت من مكان ما منسي داخله، مكان ما زال يشبهنا، حُفِظَ كما هو جراء قصة حب قديمة عاشها في مراهقته لم يفلح بنسيانها تماماً، أو رسالة من ابنة الجيران وقبلة مسروقة في حقل على أطراف القرية، أو ربما فيلماً ما شاهده، أو رواية قرأها في زمن كان للقراءة تأثيرها عليه.

– على فرد ركضة.. بتركض. وما توقف لتوصل لمكان الزوار وتصير بينهم. ولا تنظر وراك، ولا يمين ولا يسار. ومهما ومين ما صاح فيك، لا ترد ولا توقف. يلا بأقصى سرعة. نفّذ.

أديت التحية العسكرية فرحاً وانطلقت بأقصى سرعة في مدى الساحة المقدسة للاجتماع العسكري. لحق بي مكبر الصوت صارخاً بزعيق لم يعنيني في تلك اللحظة. هدر الضباط كسيارات «الزيل» العسكرية الروسية القديمة، وأطلق الكثيرون صراخهم نحوي ولم يصبني أحد. كنت أجري بأقصى سرعة وحيداً أمام الفصائل العسكرية المصطفة بانتظام، شاطراً فراغ الساحة الوسيع بينهم في المنتصف. كنت أركضُ كما لو أنني وحدي، وكنت وحدي. أركضُ وسط العرفاء والرقباء والملازمين والنقباء المتوزعين بتسلسل رتبهم وهم يصرخون بي، وسط الهواء الساخن الذي يلفح وجهي، وسط ألم قدميّ من الحذاء العسكري القاسي والثقيل لدرجة تثبيتك في المكان. كنت أركضُ وأركضُ، وأربعة ألاف عين لرفاقي تحملق بي. لو تَوقفتُ، أو نَظرتُ، أو تَعِبتُ، أو أمسكوا بي، فستكون عقوبتي تفوق خيال هذه اللحظة، ولذلك ركضتُ وركضتُ، كما خلف حرية هاربة، والتففتُ حول جنود الحرس الذين لم يفهموا لماذا يجري هذا القادم من ساحة الاجتماع المقدسة، هل فقط من الشوق للقاء القادمين لزيارته! تجنبتهم دون توقفٍ وجريت، ركضتُ ركضتُ، دخلت بين الأشجار في مكان الزيارة، ركضت، كما لو أنها الخدمة الأخيرة التي أرجوها من قدميّ. ركضتُ متجاوزاً العائلات المبعثرة على الأرض بانتظار صغارها حتى فرغت رئتيَّ من الهواء. ركضت، كانت هناك، تجلس على الأرض، وصلت إليها عينيّ قبل جسدي، هَمَّتْ بالوقوف، لم أتوقف، تابعت

جريي بأقصى سرعة، أنا الذي لم أتوقع أن تأتي راقصة الباليه لزيارتي، ركضتُ ركضتُ حتى سَقطتُ عليها.. وأنا ألهث.

كانت لارا..

لارا البيضاء الناصعة كبجعة، كنت بين ذراعيها بملابسي العسكرية وغباري وعرقي أتنفسُ بصعوبة غير قادر على الكلام وأنا أنظر إليها، كمن يلفظ أنفاسه الأخيرة. هنا فقط، بين ذراعيها، لن يجرؤ أحد على الامساك بي، أو حتى الاقتراب ليأخذني ويعيدني إلى تراجيديا الاجتماع الصباحي. هنا فقط أحسست بالأمان في حضن الرسولة القادمة من بحيرة البجع، ورائحتها تغزل موسيقا تشايكوفسكي مغطيةً على مكبر الصوت الأحقر في تاريخ أُذُنَيّ. هنا فقط نظر جنود الحرس إليَّ بحنق وهم يتجولون حولي، كما لو أني فريسة ممتازة لهم، لكنهم لم يجرؤوا على الاقتراب من طرف فستانها الأبيض. كان في فستانها الأبيض وساقيها النحيلتين وعيونها الناعسة ما يرهبهم أكثر، ويحميني.

بعد ثلاثة أعوام دخل باسم وقال أطفئ الضوء يبدو أن هنالك قناصاً يتسلى. كان كل شيء قد اختلف. كلية المشاة العسكرية قد اختفت، دخلها من دخلها، وقُتل كل من فيها بمن كان خارجها. أما أنا الذي كان يجب أن تنتهي خدمته العسكرية الإلزامية قبل عام ونصف، فما زلت مَلبوساً بها. أطفأنا الضوء وجلسنا ندخن على وقع صيحات «حي على الجهاد» المتتابعة، لكسر الملل في المكان الذي أرسلونا إليه لنكون بمأمن من الضربات الصاروخية الأمريكية نهاية ذلك الصيف. كنت أتمكن أحياناً من الهروب مساءً من هذا الملجأ شبه المحاصر لأكمل بروفات المسرحية التي أعمل عليها في مسرح القباني، قبل أن أعود إليه مع شروق الشمس. لكن في دخولي وخروجي كان علي أن أمشي ما يقارب الكيلومترين ملتصقاً بالجدران والأسوار المطلة على الشوارع المتعامدة، كي لا أكسر ملل قناص ما، فيقرر اصطيادي.

كان محمد الذي أمضى حياته بدراسة الموسيقى، يقهقه وهو يشاهد فيديوهات على اليوتيوب في جواله لمسكين يغني بلهجة عراقية أغنية كوميدية بطريقة مميزة. أما باسم فقد لفَّ سيجارة ووضعها في زاوية فمه، وجلس يعزف على الغيتار غير آبه بالصيحات المتكررة والوحيدة في وحدة هذا الليل في منطقة شبه مهجورة إلا منا ومن أصحاب هذه الصيحات: حي على الجهاد، حي على الجهاد، حي على الجهاد، دون أي صيحة جديدة تكسر الرتابة.

أرسلت للارا رمزنا المشترك على الواتس آب، الدعسوقة، تلك الخنفساء بثوبها الأحمر المنقط بالأسود، الرمز الذي اختارته هي لكوننا نتفائل بها نحن

الاثنين. لم يتأخر الرد، أرسلت لي وجهاً يبتسم بامتنان واطمئنان بعينين شبه مغمضتين، أو هكذا كان يبدو لي، وجهاً متناسياً للصواريخ الأميركية المتوعدة التي قد تهبط في أي لحظة. ذلك ما كنت أحتاجه أو أتخيله، طالما أنها كانت دوماً تبتسم بالطريقة ذاتها عندما تراني. وجه يبتسم لي بامتنان وعينان سوداوان تغمضان علي باطمئنان في وطن يتداعى.

بعد أن كتَبَتْ: «يا ليتك عندي» انقطع اتصال النت. حَمَّستُ أصدقائي كي يخرج أحدهم ويشاركني متعة التدخين خارجاً ونحن نتمشى في ضوء القمر، لكنهم فضلوا البقاء. لا داعي للمغامرة وإضافة قصة جديدة من قصص القنص بناءً على ضوء احتراق طرف سيجارة كانت تستقر في فم أحد ما، بقيت حكايته وابتلعته الحرب هو واسمه ومتعة سيجارته الأخيرة كأي محكوم بالإعدام، والرصاصة التي استقرت في فمه بعد رشفة أو رشفتين من احتراق التبغ.

خرجتُ وانتقيت الحائط الذي ظننت أنه الأفضل للحماية من قناص البوابة الخلفية، والأسوأ في حال حصول هجوم برّي علينا. لكني كنت يومياً أقنع نفسي باستحالة وقوع الهجوم طالماً أنهم لم يوزعوا علينا هنا أية أسلحة، نحن القادمون من مكان لا يعترف بقية العسكريين بأن من فيه يصلحون للحرب، ويروننا مجرد مجموعة تافهة من الفنانين والمخرجين والممثلين والموسيقيين وحتى الراقصين. حسنٌ، ربما نحن كذلك. أنا على الأقل أعترف: أنا أكره الحرب، لا أصلح لها ولا تصلح لي، لا تشبهني ولا أشبهها.

فجأة، توقفتْ قربي سيارة «جيب واز» عسكرية عتيقة، وأطل سائق أحد الضباط منها. كنت أعرف وجهه ولا شيء غير ذلك. صاح بي سائلاً عما أفعل هنا؟ أدخن، ذلك ما كنت أفعله ويراه بكل حال. يا له من جواب.

– اركب.

– إلى أين؟!

– اركب قلت لك.

جلست بجانبه وكررت سؤالي، لكنه أجابني بطريقة مختلفة:

– بكرة الصبح تلاقيني بساحة المحافظة الساعة 6 الصبح.

وافقت صامتاً، كنا بالفعل قد تجاوزنا بوابة الخروج. وافقت وأنا لا أعرف ماذا سأفعل حقيقةً في هذه الساعات الخمس غير المخطط لها حتى الصباح. لا معنى لذهابي إلى منزلي وجلوسي وحيداً بانتظار شروق شمس يوم جديد، أما أمي فقد نامت منذ ساعتين، لماذا أوقظها! أين أذهب وماذا أفعل؟!

السؤال الذي وجهته لنفسي في داخلي، تحول إلى سؤال له وهو يخرج من شفتي.

– وين رايح؟

– لعند صاحبتي.

قالها متحمساً وهو يضحك بحماس مخلوط برائحة تبغ بلدي، ضاغطاً بشدة على دواسة البنزين كما لو أنها مضخة للتستوستيرون في جسده. هززت رأسي مثنياً على اللذة التي تنتظره كما يفترض بي، وكامتنان على إخراجي من هذا المكان المقيت ولو لبضع ساعات، لكني عدت وسألته فجأة:

– وليش طلّعتني معك؟

– لأنه مو معقول أطلع لحالي بنص هالليل. افترض طلع لي شي مجموعة مسلحين!

هززت رأسي مجدداً مثنياً على حماقته. ما الذي يمكن أن أُفيده به وكلينا أعزلين وسط طرقات بلا إنارة! كان يعرف في قرارة نفسه أنه لو تم الإمساك بنا فلن أستطيع أن أفعل له شيئاً، ولا لنفسي أيضاً. لكن جُل ما كان يريده مجرد «ونيس»، رفيق في رحلته المحفوفة بالمخاطر. لم أستغرب، فعموماً نحن أصبحنا نفضل الموت الجماعي بدل الموت فرادى كل في وحدته على حدة. وعلى هذا النحو حين كانت تهبط قذائف الهاون فاردةً ملاءة الموت على دمشق، كان الكثيرون في حيي يتركون بيوتهم ويلجؤون إلى مقهى الروضة المزدحم، وغير المسقوف أصلاً، ليشربوا قهوة جماعية على شرف توقع الموت بقذيفة تحيل المكان إلى مجزرة، وكنت أنا من هؤلاء الناس.

لكن هل كانت اللذة المنتظرة تستحق فعلاً المخاطرة بحياتنا بهذه الطريقة؟ يبدو أنها كانت تستحق، أو ربما، ربما مجدداً، لم يكن لديه سوى اعتياد هذه الطريقة لكونها الوحيدة، لكن، ما لذتي التي تنتظرني أنا؟

ترجلت من السيارة، وصعدت دَرَجَ البناء الشاحب في انقطاع الكهرباء دون أن ينتبه لي أحد من سكانه السهارى. هناك على السطح وقفتُ أحدق في المدى الشرقي لدمشق، وأشكر الله وسائق سيارة «الجيب واز» بالتساوي على أن طريقه كان يمر من منطقة أوتوستراد المزة. بدأت المباني المتلاصقة تُضاء واحداً بعد آخر مع عودة التيار الكهربائي المقطوع، مكتسحة بأضوائها الظلام الذي كان يسود منذ لحظات، كما لو أنها علامة من الإله جواباً لشكري.

كتبت على جوالي: «أنا على سطحكم.. تعالي». وأرسلت الرسالة.

جاءني الرد خليطاً من كلمات استغراب وإشارات استفهام ووجوه بعيون واسعة مدهوشة، فأجبت برسالة مقتضبة كما لو أنها أمر عسكري يليق بما أرتديه: «اصعدي».

بعد ربع ساعة سمعت هسيس خطواتها ودرجات المبنى تقبل باطن قدميها الحافيتين تاركة عليهما أثراً من غبارها كما يترك العاشق جنيناً في جسد محبوبته. لخطواتنا جميعاً صوت وقع، ولقدميها هسيس نار تندلع مع كل خطوة.

ظهرت لارا في مدخل الدرج مقتحمة العتمة بكل جلالها، ومن خلفها أتى نور مصابيح الإنارة الداخلية لدرج المبنى، فبدت كملاك يضيء بنوره المكان. بحثَتْ عنّي بعينيها الخائفتين فلم ترني، أنا المسْوَدُ بظلام يلفني كما يليق بتائه مثلي، لكنها التقطت ضوء سيجارتي المشتعل الذي كنت أداريه عن القناصين كل ليلة، أما هي فلتصطدني في ليلتها كقناص خبير. اقترَبَتْ، وقبل أن تهمسَ بأي كلمة توبيخ لجنوني، أمسكت يدها وأجلستها بجانبي على الأرض. رميت السيجارة وقبلت يديها الصغيرتين برومانسية لا تشبهني، لكنها تليق بفارسٍ ليليٍّ مثلي في لحظة كهذه، وقد تسلق سطح منزل حبيبته كما لو لأنه روميو ما قادم من زمن شكسبيري ملطخ بالدماء. بعد ذلك، خَلَّفتُ الرومنسية في جسدها إلى ما هو أعمق، لم أكن قادماً لنتحدث، فقد استهلكنا جميع أحاديثنا في تطبيقات الواتس آب والماسنجر والفايبر يومياً، لذلك أغلقت شفتيها بشفتي، فانفتح جسدها لجسدي.

بعد نصف ساعة كنا نستلقي على الحصير العتيق المرمي على السطح وكلانا يلهث، أنا أعد النجوم في السماء، وهي تعد انعكاسها في عينيّ. قالت لي أنها ستسافر قريباً مع عائلتها، وأن قرار الفرار من الحرب والهجرة الجماعية قد أُتخذ بالإجماع، وأن لا جدوى من البقاء هنا. لم أكن أحتاج لكل هذه المبررات والحجج، فما معنى أن أطلب منها أن تبقى وتنتظرني وأنا لا أعرف متى ستخلعني بزتي المموهة هذه! وأنا لا أملك من قدري أن أختار أو أعرف! لا أستطيع سوى الانتظار، ربما لانتهاء حرب أتيقن يوماً بعد يوم أنها لن تنتهي أبداً. كان الأجدر بي أن أقول لها خذيني معك ولا تنتظريني. ابتسمت لها، وداعبت شعرها الأسود المتموج بحنان لا يحضرني سوى في لحظات كهذه، وقلت لها بلهجة تقريرية:

– السفر أفضل. لا تضيعي عمرك في الانتظار هنا.

نظرت لي بأسى. في داخلي قلت: لا تربطي مصيرك بمصيري الذي أجهله.

فجأة سمعت صوت خطوات على درج البناء، صوت وقع كما خطوات أي كائن بشري. نهضت مسرعاً، وابتعدتْ لارا إلى زاوية بعيدة لتصبح شبحاً نحيلاً غير

مرئي. قطعت الطريق على هذا الزائر الليلي المزعج الخارج إلى السطح ليطمئن على امتلاء خزان منزله بالمياه، وباغته بأمر أن ينزل مجدداً من حيث أتى. تفاجئ، وارتبك وهو يرى جندياً بلباسه العسكري على سطح بنائه بعد منتصف الليل. سأل بتوجس إن كان هناك مشكلة ما، دون أن يجرؤ على سؤالي عما أفعله هنا. ربما اعتقد أن وجودي هنا على السطح مرتبط بصواريخ كروز الأمريكية المنتظر سقوطها. كررت جملتي له بأن ينزل فوراً. امتثل للأمر وهم بالنزول، وعند باب الدرج التفت وسألني بنوع من التضامن إن كنت أراقب شيئاً ما؟ أو أرصد شخصاً؟ أو أن هنالك موكباً ما سيمر؟ كدت أضحك، قلت له بلطف هذه المرة كنوع من رد التضامن الوطني:

– يا عم، أنا هون بمهمة خاصة. لكن لا تقلق، كل شيء تمام.

ابتسم ودعا الرب أن يوفقني ويحميني في مهمتي هذه، كما يدعو أي مواطن بسيط يعيش حياته بهامشية لمن يحمل تقطيبة الموت في جبينه مثلي. فدعوت الرب أن يمنحه السلامة، خاصة وأنه لم ينتبه لقدمَيّ الحافيتين جراء مناوراتي المشتركة مع لارا قبل دقائق.

في السادسة صباحاً كنت أقف باعتزاز كسارية العلم في ساحة المحافظة أمام تمثال يوسف العظمة. مرت «الجيب واز»، التقطتني على عجل ومضت بي إلى مأوانا التائه عن الصواريخ الأمريكية، تلك الصواريخ التي لا يمكن أن تسقط في ليلتي مع لارا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7

هوامش

لارا.. لارو.. النورس الأبيض كما تعنيه، وكما أخبرني شيخ المخرجين السينمائيين البارحة في سهرة مصغرة مقامة على شرف كؤوس العرق. قدحتْ عيناي ولم يعرف لماذا. لم يعرف أني قبل ليلة واحدة كنت أكتب عن لارا، النورس الأبيض في ظلمة ليل ذاك الشاب المعتق بغبار الحرب. أكتب عن نفسي من خلاله، أعطيه حكايتي وأعود آخذها كما لو أنها حكايته لأرتديها، ولأنسج منها ومن كل الحكايات التي أصطادها حكاية واحدة، ولتكون لارا نورسي الأبيض الذي يضمني بجناحيه ليتسلل الأمان لقلبي. لارا.. حيث حضنها المكان الوحيد الذي لا يصلني رعب الموت فيه فأبتسم، كأنني في وقف إطلاق نار دائم. لارا.. الحرب تتوقف عند وصولها لراحتي يديك. أين أنت يا لاراي..؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8

أنهيتُ قراءة ما كنت قد كتبتُ محرَراً بأصابع حنان، وأغلقت الملف وكتبت لها على الماسنجر: صباح الخير. هل يمكن أن ترسلي رقم هاتفك. ثم نهضت وجلست أمام النافذة المطلة على مئذنة صغيرة خربة، مراقباً الحمائم المستكينة إليها طالماً أن الأبواق المثبتة عليها لم تطردها بعد بالأذان. من هنالك كنت أيضاً أتابع جمل حنان وهي تظهر ملونة بالأزرق على شاشة كومبيوتري الشخصي بالتتابع.

– صباح النور.

– خير في شي!؟

– في شي مشكلة بهاد الفصل من الرواية؟

– هاد رقمي

– 93994105

– فيك تدقلي بأي وقت.

– وإذا بدك بنلتقي بدار النشر، أنا نازلة بكرة الصبح.

– أنا كمان بدي شوفك.

– في شوية أشياء بدي اسألك عنها بخصوص تحرير الرواية.

– ضل بخير.

ثم أرسلت وجهاً تضحك عيناه وفمه.

بعد نصف ساعة، أنهيت فيها قهوتي وثلاث سجائر، وأحصيت ثلاثاً وأربعين حمامة دخلت المئذنة، أرسلتُ رسالة لها على الموبايل أسألها فيها إن كانت تستطيع ملاقاتي مساءً في مقهى «قهوة مزبوطة»، وفي الساعة التي تحب. عشر دقائق مرت، تراقص خلالها بندول الساعة الجدارية الذي يحكم شقتي مؤرجحاً انتظاري ستمئة مرة، لتردني رسالة منها بالموافقة محددةً الساعة السابعة ومرفقة بسؤال: «تقصد قهوة Pages، صح؟»

ابتسمتُ، فأنا أحب الاسم القديم لهذا المكان، ويبدو أنها مثلي.

في السادسة مساء كنت أمر من أمام مقهى «فنجان» القابع على الزاوية، حيث التقيت الشاب المحدق بإشارة مرور ساحة عرنوس. لم أكن أتوقع أن أراه. بل كنت آمل في داخلي أن لا أراه، ورغم ذلك كان في داخلي بعض من

رغبة تمتلكني بأني مدين بزيارة لأطلال سرد حكايته المكملة لروايتي. نظرت إلى الكرسي الذي كان يشغله قبل أيام وهو يختفي تحت مؤخرة ضخمة لامرأة بجسد بلا ملامح، تلتهم بضراوة سندويشة شاورما ضئيلة. دون توقف مضيت في طريقي وأنا سعيد بأن حكايته لم تختف كما اختفى أثره من على الكرسي، وكما انمحت من على معدن إشارة مرور عرنوس الآثار التي خلفتها عينيه من طول التحديق بها يوماً بعد يوم، بتعلق مليء بالأمل، وخال من المعنى للآخرين في النهاية. مدحت نفسي متواطئاً بشكل علني مع ذات الكاتب الساكنة بي، وبشكل لا يخفى على الذات الطبيعية داخلي، الرافضة لحركات الفخر والتطنيب هذه عادة.

أكملتُ مسيري ضمن أسواق الصالحية وشارع الحمراء والشعلان وصولاً إلى مدرسة دار السلام، عابراً أمام «الهويات القاتلة» و«لمن تقرع الأجراس» كتابي أمين معلوف وأرنست همنغواي المتكاتفين خلف زجاج مكتبة شاشاتي، هناك التففتُ مع السور الحديدي لمقهى «قهوة مزبوطة» ودخلت. تجولت عيناي بين الزبائن فتيقنتُ بأني لا أعرف أحداً، وتيقنتُ أيضاً من أنه لا يوجد طاولة أو كرسي فارغين في هذا المقهى الصغير الحميمي. هرع النادل نحوي، وبعد حديث قصير أقنعني بأن أنتظر في ركن غير المدخنين ريثما تفرغ إحدى الطاولات. مضيتُ على مضض، لكن بتسليم المحكوم، وما إن جلستُ خلف الطاولة المنخفضة حتى وضعتُ سيجارة في فمي. رفعت الفتاة الوحيدة الجالسة في هذا الركن عينيها عن كتابها الذي تقرأ به نحوي، لكني أخرجت ولاعتي ووضعتها على الطاولة أمامي كما يسلّم كاوبوي مسدسه، دون أن أشعل سيجارتي بنصف ابتسامة ونصف رضا، عند ذلك فقط اطمأنتْ وأعادتْ عينيها إلى حيث تتجولان بين كلمات كتابها.

نظرت إلى ساعتي ثم إلى بقعة في الجدار مختلفة اللون، هنا كانت تستقرُ في ما مضى صورة ضخمة أحبها لفتاة تنظر من نافذة باص أصفر نحو الناظر. كان ذلك عندما كان اسم المقهى Pages، في زمن مختلف كنت آتي خلاله دون موعد يقودني ضجري المسائي فأجد عشرةً من رفاقي جالسين به. أولئك الرفاق الذين غادروا واختفوا في سنة واحدة متوزعين بين الدول الأوربية كلاجئين هاربين من الحرب، وباحثين عن حياة أكثر توازناً وأقل قلقاً من بلاد مصابة بالجنون.

كانت الساعة إلا خمس دقائق من موعدنا. من هي حنان؟ لا بد أنها شابة، لها على الأقل بعض الجاذبية إن لم يكن جمالاً، مرحة بقدر مرضي. لست متطلباً أنا في ذلك، لكن يا آلهة الرواية لا تجعلي محررة روايتي امرأة قبيحة ومترهلة ومزعجة، ألا أستحق ذلك وأنا مريدك الشريد، نجيني من امتحان الخيبة.

دَخلتْ، رأيتها من خلال الفاصل الزجاجي تتلفت بحثاً عني، بقميص بلون اللؤلؤ وبنطلون قماشي أسود، لا بد أنها هي، قلت في نفسي. لم تنظر نحو ركن غير المدخنين، بالتأكيد لن يخطر لها أن أجلس فيه وأنا المدخن الشره. اقترب منها النادل وتبادلا عدة جمل قبل أن يشير لها بإصبعه باتجاهي. تقدمت نحوي، دخلت، وما إن استدارت لتغلق الباب الزجاجي خلفها حتى أكملت ابتهالاتي: – لا تخلط العمل بمتعك الجسدية.

– لا تخلط العمل بمتعك الجسدية.

– لا تخلط العمل بمتعك الجسدية.

– مساء الخير. أنا حنان.

جملتها أنهت صلاتي، فنهضت كأي رجل محترم لا يسترق النظر إلى داخل فتحة قميصها الواسعة، والتي اتسعت أكثر حين انحنت لمصافحتي وأنا أنهض بصعوبة من على الكنبة الواطئة بلون القرميد نحو عينيها العسليتين.

– أهلاً بك. تفضلي.

جلست حنان مبتسمة بمرح خجول على كرسي منخفض بمواجهتي، ووضعت حقيبتها على الأرض جانبها. كانت تلك حركة أكرهها من صديقاتي، وأحبها من اللواتي لا أعرفهن. ذلك يعني أنها متمردة لحد ما، في أعماقها على الأقل. تلك كانت تأويلاتي الذاتية التي كنت أقتنع بها بتسليم نبي بآياته.

لكنها سريعاً باغتتني بنصف سؤال:

– كنت بدك تشوفني؟

ابتسمت وأجبت مستوياً في جلستي ومعلناً أني المتحكم بالجلسة.

– وإنتي كمان بدك تشوفيني، قلتي لي. خلينا نطلب قهوة.

بعد نصف ساعة كنتُ قد فهمتُ طبيعة شخصيتها المسترسلة كخصلات شعرها السوداء دون أن تصلنا أية قهوة، أما تفاصيل حياتها، من هي؟ ماذا تعمل عدا كونها محررة في دار النشر؟ أين تعيش؟ أو ماذا درست؟ فلم أكن أريد أن أعرف منه شيئاً. أنا أحب النساء المجهولات، وأكره تفاصيلهن الزائدة عن حاجتي. ومع ذلك تحدثنا عن أشياء لا أهمية حقيقية لها إلا مجرد التمهيد لأحاديث أكثر جدية، إلى أن قالتْ: – بتعرف إني مستمتعة بقراءة روايتك، بس عندي أسئلة كتيرة براسي.

وقبل أن تنتظر إجابة، وأنا كنت حقاً لا أنوي الإجابة باستثناء ابتسامتي الخفيفة، فأنا ما زلت أتعثر بالخجل حين أواجه بالمديح، ذلك الطفل داخلي

والذي يسعى للتفوق، يخجل. قبل أن تنتظر الإجابة تابَعَتْ: – بس عن جد عندي كتير أسئلة. مو أسئلة، تساؤلات خلينا نقول.

– تفضلي.

أمسَكتْ أًصابعها بزر يغلق فتحة قميصها لتداعبه، ورفعت رمشيها بنظرة لمكان ما لا مرئي في الأعلى فوقي، مرافقة ذلك بتنهيدة قرار استجماع قوة ما.

– يعني مثلاً.. أنت عندك بطل واحد، ولا أكثر؟ بعرف أنو لسا الرواية ما خلصت، وبكير لأسال هيك سؤال، لكن خود الموضوع على الأقل من الناحية العملية، يعني أنا كمحررة لازم أعرف هي التفاصيل، حتى لو أنت بدك تخبيها عن القراء، مشان أعرف اشتغل معاك ع الرواية.

– إنتي شو حسيتي؟

قلت ذلك وأنا أعود بظهري للخلف. أي أني مستمع مهتم ومتروي، ولست صاحب الأجوبة السريعة كما خمنتُ أنها تريد.

– ما بعرف، بس عموماً بيكون البطل واحد بالحكاية.

– برأيِك كل حكاية فيها بطل واحد؟

وضعت ساقها اليسرى تحتها جالسة بميلان على الكرسي. حركة عفوية توحي بالراحة رغم مواقفي الدفاعية. أعجبني ذلك حقيقة، فملت نحوها كمهتم لأمنحها جرعة من الثقة لم تكن تحتاجها، لكني كنت أريد تقديمها كشكر على ارتياحها في جلستها معي لا أكثر.

– أستاذ. صح أنو أنا مو روائية، ولا ناقدة، لكن لو ما بفهم بهي الأمور ما اشتغلت محررة. ممكن يكون بالحكاية طبعاً، وبقصد مفهوم الحكاية بالمطلق مو بس روايتك، ممكن يكون فيها عدة أبطال، وممكن يكون إلها بطل واحد، وأنت عم تكتب حكاية عن اليوم، الناس، الآن وهنا.

– وأنت برأيِك هالحكاية الواسعة الآن وهنا، ممكن يكون فيها كم بطل؟

– ممكن يكون فيها كتير وما بنعرفهم. وممكن نختار واحد ونحمل أحداث الرواية عليه.

– طيب وإذا جبنا هالناس الأبطال وعملناهم واحد، يعني مو نختار واحد منهم كنموذج، إنما نخليهم كلهم واحد.

ابتسمتْ، ابتسمتْ عيناها قبل شفتيها. كانت كما لو أنها قد تأكدت مما كانت تعتقده، فلم يكن بإمكاني إلا أن أكمل: – الناس مفردهم إنسان. بهالزمن

وهالحرب كل إنسان معبأ بحكايته الخاصة، وربما بأكثر من حكاية. إنتي بتعرفي «المضربية»؟

اتسعت عيناها بالنفي.

– المضربية هي نوع من ستارة سميكة جداً، كانوا بيحطوها بالقرى على فتحات الأبواب الداخلية بين الغرف، بدل الأبواب لتعزل البرد. بتخيطها الأم من بقية الملابس القديمة لعيلتها. لهيك بتلاقي فيها ألوان وأنواع أقمشة وملابس مختلفة. قمصان، كنزات، جواكيت، بنطلونات. وكل منها كانت بالأصل لواحد من العايشين بالبيت، لواحد من العيلة، وإلها لونها الخاص وتفصيلتها وكمان حكايتها الخاصة حسب مين لبسها وأديش ووين. بعدين وبيوم ما، بس تكون كل قطعة من هالملابس تعبت ووصلت لنهاية حياتها، بتجي الأم بتخيطها مع بعض لتصير جزء واحد، مانحة الكل حياة جديدة. وهيي عم تخيط، بتكون الأم أكيد عم تتذكر كيف ابنها لبس هالكنزة، والتاني إيمت اشترى هالبنطلون، والقميص مين جابه هدية، وهالجاكيت كيف خِربت وبطل جوزها يلبسها، وهيي نفسها بأي عرس لبست هالفستان، وكيف انشق ضهره فما عادت لبسته، هيك لتكتمل خياطة المضربية، وتصير هالتياب اللي كان لكل وحدة منها شكلها وقماشها المختلف، وحبكتها المتمايزة، وحكايتها الخاصة، كلها مع بعضها قطعة وحدة، بدرزة وحدة، وحبكة وحدة، وحكاية وحدة، ومهمة وحدة هي أنه تحفظ الدفء بالبيت. ورغم هالحبكة الوحدة، والحكاية الوحدة، والمهمة الوحدة، ما بتلتغى الألوان الأصلية المتنوعة لقطع التياب المخيطة مع بعض، ولا نوعيات أقمشتها المختلفة، وبيضل الواحد لما بيتطلع عليها بيعرف أنه لكل قطعة ملابس منها حكايتها الخاصة، ولو إنها هلأ محبوكة ومشدودة لبقية قطع التياب التانية.

كانت حنان تصغي باهتمام، وكي أكسر روتين حالة المنظّر الثقافي، الذي يبدو أني دخلته بلا وعي مني وأنا أحاول أن أحوز إعجابها ككاتب يعرف ماذا يكتب، أنهيت خطابي التثقيفي كعادتي بجملة تُدمِّر كل الرصانة.

– وهيك أنا عم أعمل مضربية هلأ متل الأم بالبيت.

ثم أردفتُ بضحكة خرقاء، استلزمها خرق الحالة برمتها.

– رواياتي مثل المضربية، قِطَع مخيطة ببعض، وكل قطعة بلون وحبكة وحكاية، لكنها بالنهاية تكون جسماً واحد، بحكاية وحدة.

شدّتْ على شفتيها بابتسامة عميقة وهي تهز رأسها مُعجبة بما أقول، أو ربما لأنها أحبتْ فكرة صُنع المضربية لا أكثر، أو فقط كلزوم ما لا يلزم، مجرد مجاملة لكاتب تحرر روايته، وتعبث بكلماته كما تشاء، وتعطي لنفسها الحق

في أن تسدي له.. لي أنا، النصح بطريقة لطيفة، لكن بالوقت نفسه كما لو أنها تعلوني. حقاً، كيف سيكون الوضع وهي تعلوني وتشد شفتيها بالطريقة عينها. هززت رأسي وقلت: ركّز.. ركّز يا بني هذه محررتك. عاملها بحياد لتبقى حيادية من أجل خاطر عيني روايتك. في النهاية كلانا يريدها رواية جيدة، فلا توقع نفسك وتوقعها في أفخاخ تشابك خطوط الحكاية والرواية، كي لا تغدو وإياها جزءاً نافراً منها.

صحوت من شرودي وهي تقول لي:

– صحيح، شو اسم شخصيتك؟ الشخصية الرئيسية، لأن بالفصلين اللي حررتهم إلك، الشخصية مالها اسم!

ابتسمتُ، فابتسمتْ هي أيضاً وقد أدركَتْ.

– ما رح يكون فيه اسم، لأنه مو شخص واحد، هوي أشخاص بشخص. مفرد بصيغة الجمع على رأي أدونيس..

–.. أو جمع بصيغة المفرد.

أكملتُ جملتها مقاطعاً.

– لكن مع ذلك ممكن تحط له اسم معين. على الأقل مشان يعرف القراء أنه هو نفس الشخصية بكل فصل. أصلاً روايتك ما فيها أسماء كتير. حط له اسمك، بيستاهل يحمل اسمك، وبعتقد بيطلع مناسب، حتى ضمن التقنية والطرح الفكري تبعك.

قالت جملتها الأخيرة وهي تقف قبل أن تمضي باتجاه الباب الزجاجي. ظننتها مغادرة فلم أنبس ببنت شفة، لكني استوعبت أنها لم تلتقط حقيبتها مما يعني أنها ذاهبة إلى الحمام فقط. ذلك منحني الثقة لأعود بظهري للخلف مجدداً وأنا أقول ممتلئاً ثقة وضحكاً: – شو هالمباشرة يا حنان!

خرجتْ ضاحكة كما لو أنني قلتُ نكتة. أما أنا فقد نفختُ صدري كديك رومي مما اعتبرتهُ نصفَ غزلٍ في طرحها وضحكتها واستدارتها ومنظر جسدها مبتعداً خلفَ الزجاج، لألتقط بشكل آلي سيجارة وأنا أتعجبُ كيف بقيتُ لأكثر من ساعة دون تدخين، ولأضعها بين شفتي وأشعلها بلذة اللحظة التي انسابتْ من جوانبها بسلاسة كما لو أنها كاراميل، مالئاً رئتيّ بدخانها، ولأخرجه بزفير طويل، بطيء وممتع، حتى أنني مددت لساني في الهواء لألحس بقايا الدخان قبل أن يبتعد متشتتاً، بقايا اللحظة التي تسيل من حولي كما في لوحات سلفادور دالي. في لحظة كهذه بإمكاني أن أعيشَ عمق «إصرار الذاكرة»، لوحته التي رسمها، فأجد نفسي أثبّتُ اللحظة محاولاً إطالتها مخترقاً قوانين فلسفة الزمن والفيزياء، أحياها طويلاً وبثقة أحطم الثوابتِ

العلمية والفلسفية التي لا تتحطم إلا بسَنَدٍ قويٍ كاجتماعي مع حنان، إلى أن اصطدمتُ بالوجه المقطب والعينين المزمومتين للفتاة الوحيدة التي تجلسُ معنا في ركن غير المدخنين منشغلةً بقراءة كتابها. الثواني الأولى لم تكن كافية لأستوعب تحديقتها بي. حتى أني كنت أقاوم لا إرادياً كي لا أخرج من لحظتي الخاصة الممتعة، لكن يدها التي أشارتْ إلى لوحة NO SMOKING المعلقة بفخر كإحدى المعلقات الشعرية السبع، كسرتْ جدار الوهم لي، فأطفأتُ سيجارتي بتقطيبة أكبر من تقطيبتها، مضافاً إليها عصبية غير لازمة، لم تمتلكها هي وهي تراقبني ببرود وهدوء للتأكد من أني استوعبتُ إرادتها والتزمتُ الأوامر، وأن سيجارتي انطفأتْ تماماً وتوقفتْ عن إخراج دخانها المزعج لها، واللذيذ لي.

من خلف الزجاج لوحت لي حنان. للمرة الثانية داهمني قلقٌ غافَل طمـأنينتي من وجود حقيبتها قربي، فظننت أنها مغادرة وتلوح لي بالوداع. يبدو أنها قد وجدت طاولة فارغة لنا، فحملتُ حقيبتها وأنا أضغط بيدي عليها متشبثاً بالواقع كي لا يخدعني خوف رحيلها، ومضيت لأنضم لها، محيياً فتاة الكتاب الوحيدة، المناهضة للتدخين، بإيماءة لطيفة من رأسي، كما لو أني أشكرها على الوقت الممتع من عدم التدخين الذي قضيته بضيافتها. كانت تقرأ «الحياة السرية للكتّاب» لغيوم ميسو باللغة الفرنسية.

على كرسي محشور خلف طاولة صغيرة في إحدى الزوايا استقريت مواجهاً حنان، ومن فوري أشعلتُ سيجارة، فضحكتْ.

– أها.. من الأول عم قول في شي غلط. كاتب وما بتدخن! وبتقعد بركن غير المدخنين كمان!

تابعتُ دعابتها بدوري:

– كاتب تقليدي مو؟.. تيبيكل.

أمضينا الساعة التالية في أحاديث متنوعة بعيداً عن روايتي. وكدت أقع مراراً في إحدى الخطايا السبع الخاصة بي فأدخل في تفاصيل حياتها، أو أسألها عن نفسها. لكني في كل مرة كنت ألتقط نفسي في اللحظة الأخيرة، فأقول شيئاً آخر دون أن أُفقِدَ الحديث عفويته ومرحه، وأنا أعب «الكافيه لاتيه» لأكسر تقليدية الكاتب بأنه يدخن، ويشرب القهوة السورية التقليدية السادة أيضاً.

أمام باب المقهى ودعتها وهي تركب سيارة التاكسي الصفراء المبتلة بالمطر. لوحتْ لي من داخلها وهي تقول بأنها تنتظر الفصل الثالث من روايتي. لوحت لها، وفي الليل، في غرفة نومي على السرير، حدقت في السقف المتخفي في الظلام طويلاً وأنا أفكر بتفاصيل يومي هذا وأحداثه على

وقع نقرات حبات المطر عليه. لم يكن هنالك سوى تفصيل واحد، وحدث واحد، اسمه حنان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

9

هوامش

رند لم أرها بعد ذلك اليوم. لا أعرف بالضبط ما حدث معها، لكن لارا سافرت، ذلك ما حدث. أو ربما ما قد حدث، وما يمكن أن يحدث. أو ما كان يجب أن يحدث لتكتمل روايتي وتستمر. أن تختفي الشخصيات واحدة بعد أخرى كما إختفى أصدقائي في هذه السنوات القليلة، من سافر، ومن مات، ومن أُختُطِف، ومن سُجن، ومن اعتزل، ومن سَقط، ومن ببساطة اختفى. اختفى لأنه لم يعد يريد أن يكون جزءاً من حكايتنا السوداء الدموية هذه. حكاية حرب تبتلع كل الحكايات وتقتل كل أبطالها، كما في التراجيديات العظيمة كلها، من اسخيلوس وحتى شكسبير، حيث يسقط البطل في الخطأ التراجيدي حسب قواعد أرسطو، لتكتمل الذروة وتُغلق الحكاية، ويُقفل القوس.

لكن هذه الحكاية كانت تُردي أبطالها واحداً بعد أخر ولا تنتهي، ويبقى القوس الأول مفتوحاً لا يُغلق حكايته قوس أخير. أما من نجا، فهو من تبين الخطأ التراجيدي الذي ينتظرنا جميعاً لنسقط فيه، والذي هو أن نمضي في أيامنا على هذه البقعة الجغرافية مُسلِّمين بأن نكون تفصيلاً من حكايتها. إذا أردت أن تنجو، فعليك أن تغادرها إلى حيث يمكن أن تبدأ حكاية أخرى، أقل دموية وتشاؤماً وبؤساً، أن تقفز من المركب المحترق وتسبح إلى الضفة الأخرى من البحر المتوسط بمجازفة البحث عن قوس آمن يغلق حكايتك كطوف نجاة. لذلك، كان أصدقائي يهاجرون واحداً بعد آخر، أو يموتون واحداً بعد آخر، أو يتقوقعون على أنفسهم بحالة توحد اكتئابي دائمة، ولذلك كان علي أن أنقذ أبطال حكايتي، فأجعلهم يختفون منها، واحداً بعد آخر.

أما أبطالي أنا، أبطالي الحقيقين الذين أجمع حكاياتهم لأنسج حكايتي، لأكون هم أنا وأنا هم، ما بالهم باقون هنا! هل فقط لأنه يجب أن يكون هنالك دوماً شاهد على المجزرة، وصاحب حكاية يرويها كي لا تندثر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

10

على الشاطئ، كانت هنالك فرس بيضاء تركض ضاربة الأمواج بحوافرها. لم أعرف إن كان الوقت صباحاً أو مساءً. كأني كنت في بقعة مضيئة بحواف مشوشة ومعتمة كما في الأفلام السينمائية القديمة لبدايات القرن العشرين، إلا أن كل شيء كان ملوناً وليس بالأبيض والأسود. لم يكن هنالك من صوت، كل شيء صامت، تماماً كما في تلك الأفلام. مع ذلك انتبهتُ بطريقة ما إلى صوت حوافر فرس بيضاء تضربُ الأمواج المتلاطمة على الشاطئ وهي تعدو خلالها. نظرتُ إلى قدمي، كانتا غائصتين في الرمل الذي تتركه الأمواج حولهما. انحنيتُ لالتقط صَدَفةً رأيتها في الرمل، وضعتها على أذني، سمعت صوتاً هامساً، ونظرتُ نحو الفرس التي تعدو ولا تقترب. لأول مرة اسمع اسمي مهموساً بهذه الطريقة. ربما لم يكن اسمي، لكني ظننته اسمي. أمسكت الصَدَفةَ ورميتها في البحر بعيداً لتمني أمنية دون أن أفعل. ربما لا أذكر ما كانت أمنيتي. في تلك اللحظة أتاني صوتٌ من الخلف، مع تأكدي من الصمت المطبق، لكني التفتُ لأرى عامر يضحك بشدة، اقتربَ مني ووقف بجانبي، نظرت حولي، لم تعد الفرس البيضاء موجودة، لكني رأيت منزلاً أبيض. سرنا أنا وعامر بضعة خطوات لنجد أنفسنا داخل المنزل، ومن ثم فجأة على شرفته. كان مطلاً على دمشق كما لو أنه قاسيون. أردت أن أناديه ليرى الإطلالة البديعة لهذه المدينة التي لم نعد نراها من الأعلى، لكن عامر كان واقفاً على الشاطئ يداعب خصلات الفرس البيضاء وحده. فجأة ارتميت إلى الخلف محتمياً نتيجة إحساس غامض بخطر انفجار أو قذيفة، لم ينفجر شيء. في الخلف، كانت رولان تجلس بهدوء على كنبة منخفضة ذات لون لا أعرفه. قالت لي، مع أني متأكد من أني لم اسمع صوتها، أن ألحق بها. ثم نهضتْ لتسبقني إلى غرفة مجاورة. تبعتها، وما إن فتحتُ الباب حتى غَرقتُ في لون أصفر كضوء مصباح قوي. وضعت يدي على عينيّ وناديتها، لكني لم أر سوى الضوء الأصفر الذي ملأ المكان، أصفر بقوة أصفر «ماتيس» في لوحاته. عدتُ خطوةً إلى الخلف، كانت رولان ما تزال جالسة على الكنبة بلونها المجهول، اقتربت منها، سألتني عن عامر فقلت إني لم أره منذ اختفى. في تلك اللحظة وجدت نفسي أقفز من الشرفة إلى الشارع. وكما في كل مرة يحدث ذلك معي، وقفت طويلاً على الحافة متهيباً القفز في عتمة الأسفل الذي لا يبدو له قعر، وصوتٌ يناديني. ولكني قفزتُ في النهاية مستجيباً لنداء الفراغ، كما في كل مرة أيضاً. ما أن لامستْ قدماي الأرض حتى وجدتُ نفسي في الشارع. كان الناس يركضون وأصوات أجهزة إنذار السيارات الواقفة على الجانبين تنطلق في ضجيج هائل يخترق طنين أذني. عرفت وحدي أن سيارةً ما قد انفجرت، فأطلقت بقية السيارات إنذاراتها كما يحدث دوماً. بحثت دون جدوى عن دم يُفسد ما أرى، لكني وجدت تسعة، أو ربما

عشرة، وربما ثلاثة، أو لا أعرف كم من الجثامين المصفوفة بعناية أمام جمع من الناس. لم أتبين إن كانوا يصلون على هذه الجثامين، أو يتناقشون حول كيفية دفنهم، أو موتهم، أو أسمائهم، أو علاقتهم بي. ظننت أني أعرفهم، وأنهم رفاقي. حاولت أن لا أتذكر أسمائهم كي لا يقيدها الموت فيبقوا أحياء. أحسست بخدر في قدمي فنهضت محاولاً المشي مبتعداً، وما كدت أخطو أول خطوة حتى سحبتني فجأة يد إلى داخل زقاق ضيق. قبلتني هلا بسرعة قبل تستفيق شفتي من انفراج ذهولهما. أردت أن أقول أن اللحظة ليست مناسبة، وأني مشغول برفاقي والموت الذي يراوغهم، ولكني كنت في السرير معها كما لو أنه قد حدثَ قطعٌ مونتاجيٌ في تسلسل المشاهد. ركزتُ على حلمتيها، قبل أن تعطيني ظهرها. سمعتُ صوتاً يناديني، أردتُ أن أتجاهل واستمر، لا أستطيع تفويتَ لحظة كهذه مع هلا المميزة دوماً في شبقها. احتضنتها من الخلف ومِلتُ عليها، ثم أمسكتُ عظمي وركها بكفيّ لأتحكم بحركتها. عاد الصوت، كانت الصَدَفَة الكبيرة موضوعةً على الأرض، أردت أن أنزل لأدوسها بقدمي، لكن هلا التفتتْ وهمستْ باسمي كسؤال. ضحكتُ من سذاجة سؤالها، قبل أن تعطيني قصاصة ورقٍ مطويةٍ أخرجَتها من جوف الوسادة البيضاء. وضعتُها في جيب معطفي الأسود الذي لا أعرف متى ارتديته، بأمل أن أقرأها يوماً ما، وخرجت لأرى رولان قد أصبحت سارة، والكنبة التي تجلس عليها قد أصبحت ملونة أيضاً دون أن أنتبه. أعادت علي السؤال من جديد عن عامر. قلت بأنه مع الفرس البيضاء، وتذكرت فجأة أن لدي الكثير من معاملات الأوراق الرسمية التي علي انجازها قبل سفري، وقفز سؤال فجأة، هل أودع أصدقائي؟ والأهم صديقاتي؟ أم أسافر فقط؟ ضغطتُ بأصابعي على رأسي بحركة دائرية محاولاً تذكر متى وكيف قررت السفر. كانت طواحين الهواء تدورُ ببطء أمامي عندما ظهر أخي فجأة وقال لي أني سأصلُ يوماً. الجملة ذاتها التي أسمعها منذ سنوات سبع. مددت يدي لجيبي لأخرج الورقة التي أعطتني إياها هلا، فلم أجد جواز سفري. هلعتُ وارتعبتُ لضياع جواز السفر الذي لم أستطع الحصول عليه إلا بعد سبع سنوات من الضياع الكلي للهوية. كان المرعب أكثر أن لدي جواز سفر. خَطر والدي في ذهني للحظة ثم اختفى. لم يكن لدي الوقت لأقول كعادتي، لو أنه لم يمت لساعدني، فقد وجدت نفسي أركب في سيارة الإسعاف قرب سائق لم أنتبه إليه. نظرت إلى الخلف لأرى والدي مسجى، وجسده ووجهه مغطيان بقماش أبيض دون أن يظهر منه سوى شعره الأشيب، تماماً كما حدث لأربع ساعات في ذلك اليوم من شهر تموز، عندما كنت في الطريق من دمشق إلى سلمية ألتفتُ مراراً لأنظر إلى شعره الذي تتحرك خصلاته حيةً بهواء الطريق، آملاً قيامته كقديس من موته قبل وصولنا لدفنه. التفتُ إلى السائق فوجدتُ حنان، بادرتني بالقول بأني لا أملك الكثير من الوقت، وأن علي أن أسرع. مع ذلك لم أفهم لماذا تقود هي ببطء. أردت أن أمد يدي إلى داخل

فتحة قميصها اللؤلؤي، لكني في اللحظة ذاتها ضجرتُ من طولِ المقدمات، فأردتُ أن أعانقها مباشرة. انفلتتْ مني وجَرتْ على عشب المرج الأخضر عاريةً وهي تمسك بشال أزرق مطرز بالخرز، رافعة إياه بيديها ليطير خلفها كسحابة تلمع بالبرق. وراء الشجرة أعلى الهضبة الصغيرة في المرج المطلة على بحيرة سد «تل التوت» أمسكت بها، ليس بعيداً عن قبر أبي. ضَحكتْ وقالتْ لي أنها ترغب بي. قلت: أعرف فلقد سمعت صوتك داخلي. ضَحكتْ وقبلتني، وما أن استلقيت فوقها لأزيح خصلات شعرها الأسود عن عينيها العسليتين حتى طلبتْ مني أن أجيبَ على الهاتف. حاولتُ التركيز على ما أفعل أكثر كي لا يتلاشى ما حولي، لكني وجدت نفسي ألتقط ببطء مونتاجي السماعة في غرفة نومي وألصقها بأذني، دون أن يتوقف الهاتف عن الرنين.

فتحت عينيَّ والتقطتُ جهاز الموبايل. على شاشته كانت الساعة التاسعة وسبع عشرة دقيقة على ما رأت عيني النائمتين، ولم يكن هنالك أي اتصال، لكن طرقات خفيفة على باب المنزل تسربتْ لأذنيّ وسط نعاسي وضبابية الرؤية في عيني. نهضتُ بصعوبة من السرير وأنا ألفُ نفسي كشهيد بالشرشف الأبيض الذي أتغطى به، دون أن يغادر النوم جفوني تماماً، ودون أن يهدأ الانتصاب الذي سببته لي حنان مُعلناً أني ما زلت حياً. جررتُ نعاسي نحو الباب ونظرتُ من العين السحرية. كانت مروة تقف ممسكة بشيء ما. فتحت لها الباب، فدخلت وقبلتني وهي تلهث من تعب صعود الطوابق الأربع، قبل أن ترمي بنفسها على الصوفا الحمراء وتبدأ بخلع قميصها من حر اليوم.

– شوب يالله شوب. لا تقلي الكهربا مقطوعة.!

أطلقتْ شتيمة وقحة وهي تعتذر عن كونها أيقظتني، ثم طلبتْ مني أن أجلس بجانبها. قلتُ لها أني سأمضي لأخذ حمام سريع، ريثما تعد هي لنا القهوة.

تحت الدوش، اقشعر جسمي من الماء البارد المنسكب عليه بغزارة. وقفتُ أتأمل أصابع قدميّ والماء المنساب من رأسي إليهما لأصحو. خرجتُ من الحمّام وقد استفاق جسدي جراء البرودة، دون أن يصحو دماغي. لففتُ خصري بالمنشفة، وخرجتُ لأرى مروة تقف أمام البوتوغاز في المطبخ تحرك القهوة بملعقة صغيرة حافية القدمين كما أُحب، مرتدية بنطالها الجينز الممزق عند الركبتين، بينما نهض نهداها تحت حمالة الصدر الخمرية بعد أن خلعت عنها كل شيء آخر. ابتسمتُ لها دون أن تنبته، وحين التفتتْ نحوي، نادتني لأضمها من الخلف. كانت قد عقصت خصلات شعرها الأحمر للأعلى محررة عنقها لأقبله كما أشتهي وتشتهي، بينما يدها تثابر على إثارة القهوة في الركوة بإصرار. قالت لي بجدية أنها لا تملك سوى ساعة واحدة.

– خلينا نشرب القهوة وندخل غرفة النوم.

لا يهم من قال منا هذه الجملة.

الميكانيكية التي نمارس الجنس بها كانت مريحة لي. فهي تعفيني من تعب المقدمات والمناورات. العملية كانت مبرمجة بشكل تلقائي بسيط. تأتي مروة في الصباح، نشرب القهوة، ونأكل الحلويات التي أحضرتها في الصالون الصغير جالسين على الصوفا الحمراء. ثم ننتقل إلى غرفة النوم ونخلع ملابسنا ونحن مستمرون بأحاديث عن البلد وأوضاعها، هي وأخبارها، أنا وأحوالي، لنستلقي عاريين ونمارس الجنس. وبعد أن ننتهي نعود لاستكمال الأحاديث ذاتها وأنا أدخن في السرير واضعاً منفضة السجائر على بطني، بينما تنام هي على كتفي بخصلات شعرها الحمراء دون رومانسية فائضة. ومن بعد، نعود لممارسة الجنس بأسلوب آخر أكثر تطرفاً، قبل أن تغادر بعد ساعتين أو ثلاثة، وأعود أنا إلى كتابتي، أو أغادر إلى أصدقائي في مقهى الروضة.

هذا بالتحديد ما كنت أحبه في مروة. كلانا مُبَرمجَان على الفعل، لا تمنعات، ولا مراودات، ولا مناورات. لا رومانسية فائضة، ولا وعود بحب أو زواج أو حتى علاقة جدية طويلة. لا تزييف ولا تجميل. كل شيء مختصر ومكثف وسريع، كما تقتضي الحياة زمن الحرب. كل منا كان يعرف دوره، ويعرف أننا بهذه الطريقة نحافظ على علاقتنا حية دون أية أعباء تدمرها ببساطة، وأننا بهذه الطريقة أيضاً نستطيع أن نغطس في اللذة للأقصى، دون حياء أو حرج أو تكلف، دون طلبات أو تلميحات أو حتى كلمات أو تعابير غائمة. هذا الوضوح كان الواقع الأجمل، أن نكون حقيقيين لأقصى درجة، دون أي إحساس بالحاجة لأي نوع من المخاتلة أو التلون أو الكذب. ومن ثم تغادر مروة حياتي في كل مرة، لتتابع حياتها بعيداً، وأتابع أنا حياتي، الآن هنا. كنا نشكل استراحة لبعض من تعب الحياة وهموم العيش، لذلك لم تكن علاقتنا تحتمل أية أعباء جديدة. في كل مرة كنا نمارس الجنس بوحشية دون أي رادع لشيء. بيننا لا خجل من أي فعل، ولا ممنوع من أي نوع. لا شيء يوقفنا عندما نبدأ، لا رنين موبايلي المتكرر قادماً من الصالون، ولا قذائف الهاون التي كنا نسمعها تصفر وهي تعبر من فوق شقتي الواقعة في الطابق الأخير، لتسقط في مكان ما مجاور بمناسبة الانتخابات المقامة في اليوم ذاته لمجلس الشعب. حتى سوريا، كانت تبدو لنا أقل حزناً ونحن عاريين على تخوم النشوة.

نظرَتْ إلى الساعة وقالت أنها يجب أن تذهب إلى عملها. وبينما كانت تلبس ملابسها الداخلية الساتان كنا نتحدث مخمنين الأماكن التي تسقط فيها القذائف، ومتى يمكن أن تتوقف، وأنا أتأمل جسدها الحر والحي في الوقت نفسه. على الباب المفتوح لشقتي قبلتني قبل أن تهبط الدرج. أغلقت الباب خلفها، وبينما كنت أسمع وقع كعب حذائها يتباعد مع نزولها الدرج درجة

فدرجة، التقطت جوّالي لأرى الاتصالات التي فاتتني ولم أجب عليها لانشغالي بجسد مروة.

اتصال من حنان، وثلاثة من سالم. خمنت أن الموضوع متعلق بالفصل الجديد من الرواية، ذلك الفصل الذي لم أكتبه بعد. جلست على الصوفا الحمراء دون أن ألبس ملابسي وأشعلت جهاز اللابتوب، ومن ثم رجعت أشرب من فنجان قهوتها التي بردت ريثما يُقلع برنامج الوندوز. أشعلت سيجارةً وأنا أحدق بملف مسودة الراوية. ما الذي أحتاجه أكثر لأكتب فصلاً جديداً! ها أنا في الوضع المثالي للكتابة، مشبعٌ بالجنس ومعي قهوتي وفي فمي سيجارة ومن فوق رأسي تصفر القذائف. وها أنا عارٍ محافظ على الطقس ذاته حين أكتب كما من سنوات طويلة. بحثت على اليوتيوب عن أغنية المطرب الفرنسي جورج موستاكي «Ma Liberté» والتي تعني حريتي، وكتبت على الصفحة الأولى من الفصل الجديد:

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11

أوراق الرواية

«أنت في منطقة العمليات الخاصة، غادر على الفور. قوات الجيش..»

رسالة موبايل جماعية

كانت تصل في زمن الحرب.

– اتركْ كل شيء وتعال..

أسوأ ما يمكن أن يحدث لشخص يودع حبيبته، ربما إلى الأبد، أن يقال له.. دعها. لكن الاتصال الذي أتاني من زميلي في المناوبة المسائية لم يكن يقبل المزاح، فالدورية الليلية إن أتت المسرح المنسي في غمار الحرب ولم تجدني، لن يكون عقابي أقل من السجن، ربما، أو ربما نقلي إلى مكان أسوأ من صالة المسرح العسكري التي أؤدي بها خدمتي العسكرية الإلزامية لسنوات تستطيل. ربما سأرسل إلى منطقة ساخنة، ساخنة بمعنى ملتهبة كجرح شُقَّ ليكوّن جبهتين لا تلتقيان، وليكون عليّ أن أقاتل الموت يومياً، كعدو تقليدي لا يموت.

قلت له إني قادم فوراً، فاتسعت عينا لارا التي لم تصدق أني سأتركها في مثل هذه اللحظة، وهي التي فضلت أن تقضي مساءها الدمشقي الأخير معي لا مع عائلتها، لا مع أصدقائها، لا مع ذكرياتها بشوارع مدينة تركلها خارجاً كمطلّقة، ولا حتى في حزم حقائبها.

أغلقت الخط، ووضعت الموبايل إلى جوار كأسي الأول الذي لم أكمله بعد في «نينار»، ذاك المطعم الصغير الذي تقاسمت طاولاته وسريري الشهادة على جميع مراحل لارا في حياتي. أمسكت الكأس لأشرب منه رشفة، هارباً من الأسئلة الصامتة التي كانت تطلقها عينا لارا المتسعتان بدهشة، بانتظار توضيح يشرح لماذا علي أن أتركها وأمضي. الحبيبات لا يعترفن بالحرب. مهما قلت لهن من حجج فلن تقنعهن بأن الحرب تجبرك على ما لا تحب أو تعرف. والحرب أيضاً لا تعترف بالحبيبات، وإلا لما قتلت كل هؤلاء الشباب وتركت قلوب حبيباتهن تتصدع، لذلك قلت لها ببساطة:

– يلعن رب الحرب يا لارا..

– شوفي؟!

– كبسة. جاي الدورية، وإذا ما لاقوني بالمسرح رح تكون مصيبة. قومي خليني وصلك.

حارت لارا ماذا تقول، لكنها فهمتْ أنها خسرتْ في معركتها الأخيرة مع الحرب. الحرب التي تصر على التأكيد بأنها موجودة حتى في أشد لحظات لارا حميمية، في أشد لحظاتها حزناً، في وداع أخير لا يفترض أن يتضمن سوى شخصين ولحظات جميلة تبقى كذكرى طيبة عن حبيب في وطن بعيد وحبيبة في بلاد غريبة. حتى في خسارتها الأخيرة لن تتركها الحرب تهنأ بوداع رجل تقاسمته وإياها طوال سبع سنين، لتبرهن لها أنها تنتصر، وأنها إذ لم تقتلني، وأنها إذ تتركها تغادر البلاد اليوم، فذاك لأني سأبقى لها، للحرب، وليس للارا نورس السلام الأبيض.

صمتت لارا، صمتت مُقرةً بهزيمة أخيرة من حياتها السورية. دفعتُ للنادل ومضينا. قررت أن أوصل لارا إلى منزلها أولاً، فعلى الرغم من أن ذلك سيجعلني أغامر بالوصول متأخراً، إلا أني لن أفرط بدقائقي الأخيرة معها بسهولة. لكن سيارة التاكسي التي كانت تمضي بنا من باب شرقي إلى المزة لم تكن تعبأ بهذا كله. لم يضع السائق أغنية مناسبة لتكون خلفية مناسبة لوداع أخير. لم يسقط المطر. وحدها الحواجز العسكرية المنتشرة كأكزيما في جسد المدينة كانت تلصق هويتينا الشخصيتين ببعضهما في كل مرة يوقفنا أحدها، إذ يأخذ العسكري هويتينا براحة يده ليدقق ما إذا كنا مطلوبين أو مثيرين للشبهة. هويتانا، اللتان كانتا تريدان أن تبقيا ملتصقتين إلى الأبد، كانتا تقيمان وداعنا الرمزي. صمت مطبق طوال الطريق الذي ينقص وهو ينهي حياة مشتركة، كان يُفترض أن تبقى بشكل ما مشتركة على الدوام، في الوقت الذي كانت يدي فيه، أنا الجالس في المقعد الأمامي، تمتد للخلف من الفسحة الضيقة بين مقعدي ومعدن السيارة، لأداعب ركبة لارا بقلق، ركبة لارا التي طالما داعبتها وقبلتها باطمئنان، تلك الساق التي كنت في كل مرة أشاهدها ترقص، يرقص قلبي معها، ها هي الآن ستخطو بها بعيداً.

طلبت من السائق أن ينتظرني قليلاً لأعود معه، وفي مدخل البناء الذي تسكن به لارا، احتضنتها وهي تبكي. لم تكن تبكي لأنها قد لا تراني بعد اليوم، ولا لأني قلت لها أن تكمل حياتها كما لو أن كل شيء بيننا قد انتهى، وهو ما سيحدث على كل حال سواء رغبنا أو لا، بل فقط لأن آخر ذكرى جميلة كانت تريد الاحتفاظ بها قد سُرقت منها. قبّلتُها، لا أعرف إن كان بحب أو بمواساة. دفنتْ وجهها في جسدي، وبللت بدموعها رقبتي. لكن الدموع لا تهزم الحرب، وكل الأغاني والأفلام والروايات والحكايات والقصائد التي تشيد بانتصار الحب على الحرب، ها هي كلها الآن حولي مهزومة، مهزومة ومبللة بدمع لا يجف يجعل حبرها يسيل على درج بناء سيصبح لي بعد اليوم ميتاً ومهجوراً كأي بناء دمرته الحرب. الرومنسية في الحرب نوع الكوميديا الرديئة التي لا أحتملها، لذلك طلبت منها أن تصعد الدرج وأنا ابتسم ابتسامة من يشجع طفلاً على أن يحبوِ خطواته الأولى بعيداً عني، ثم استدرت خارجاً.

لم أعرف إن كانت لارا قد توقفت بعد خطوتها الأولى لتنظر نحوي. لم ألتفت. خفت أن ألتفت فأراها واقفة. ما الذي سيحدث عند ذلك؟ سنعود لنحتضن بعض! سنقبل بعض! سنقول أننا لن ننسى بعض! كل هذا سيكون بلا جدوى، فالحقيقة الوحيدة هي أن عبارة THE END التي توضع في نهايات الأفلام تلوح الآن فوقي وأنا أخرج من مدخل البناء نحو سائق التاكسي المنشغل بضجره من الانتظار غير عابئ بمشاعري التي تتساقط نازفة على الدرج خلفي مع كل خطوة أخطوها وأنا مغادر.

حين وصلت إلى صالة المسرح أخبروني أن دورية تفقد المناوبين قد أتتْ وغادرتْ قبل دقائق، وأنها ستعود من جديد في نهاية جولتها الليلية لتتأكد من مجيئي كما صرح الضابط رئيس الدورية لرئيس حرس الصالة. كان ذلك يعني ربما ساعتين أو ثلاثة من الانتظار، وربما أكثر. كان الرفاق الأكبر عمراً والذين أتو على عجل متحلقين حول المدفأة الكهربائية الصغيرة، وهم يتبادلون النكات الجنسية للتخفيف من حنق ليلة كهذه انتزعتهم من بين أحضان زوجاتهم الدافئة، وجعلتهم يأتون مرغمين ليبيتوا ليلتهم على مقاعد صالة المسرح في مواجهة خشبة معتمة وباردة، إذ لا أسرّة هنا سوى للحَرس الثلاثة الموجودين. أما غير المتزوجين، فقد كانوا أكثر حُنقاً وهم يطلقون شتيمة بمعدل كل خمس دقائق. هؤلاء لم يعتادوا بعد المفاجآت الليلية كالسابقين، وفي الوقت نفسه لم تروضهم الحرب بعد، بحيث يقتنعون بأن منطقها هو أن لا منطق في شيء منها.

مضيت إلى صالة المسرح وأشعلت إضاءتها الخفيفة، ثم جلست في المقعد الذي يتوسط الصف السابع من المقاعد كأي مُخرج يراقب بروفات عرضه المُرتقب. غير أن الخشبة كانت فارغة تماماً، سوى من ظلال باهتة لستائر الكواليس التي كانت تهتز بفعل تيار بارد يتسرب من فتحة في مكان ما. التففتُ بسترتي، وغصتُ في المقعد وأنا أراقبُ الظلال المتراقصة كما لو أن لارا ستخرج بثوبها الأبيض في لحظة ما من بين هذه الستائر السوداء القاتمة المنسدلة من السماء حتى الأرض، لتكسر سوادها المستقر كلون أبدي لهذا الزمن، ولترفرف كبجعة بيضاء وهي تقفز بحذائها الأحمر الصغير الذي يخبئ قدميها من برودة الخشبة الوسيعة، ولتملأ المكان بنغمات موسيقى تشايكوفسكي، ولتعيش من جديد قصة كسارة البندق، حين تحب الراقصة جندياً كسير القدم. أحسست بقدمْي تؤلمني وعينيّ تكادان تُغمضان. أنا دمية الجندي الكسير الذي تعلق براقصة تختزل الحياة في ابتسامتها ورقصتها وخفتها في زمن المعدن القاسي للمدافع والأسلحة. أنا الجندي ذو القدم الواحدة الذي لا يستطيع الرقص، ولكن على رأسه لا يتكسر البندق فقط. كسارة البندق، السيمفونية المضادة للحرب، تشايكوفسكي.. أين أنت الآن لتملأ موسيقاك المدينة كلحن وداع أخير.

الموسيقى التي أتت كانت أغنية رخيصة وضعها أحدهم في مشغل الموسيقى لتضج صالة المسرح بها. استيقظت بضيق، ونظرت إلى غرفة الكونترول في الأعلى بحنق، باحثاً عن الذي قرر فجأة أن يكسر ملله بأغنية سخيفة ويوقظني. نظر إلي أبو محمد، مهندس الصوت في المسرح، والجندي الطيب الذي لم يحارب يوماً، وهو يضحك خلف «مِكسَر» الصوت ويقول:

روح على بيتك.. صار الصبح.

سألته إن كانت الدورية قد رجعتْ مرة أخرى؟ فأجابني بالنفي. إذاً فقد ضحكوا علي. سخروا مني بالطريقة الكلاسيكية المعتادة من عدم الوضوح، أو أن هذا ما شعرت به، وربما هذا ما كان متوقعاً. يقولون أنهم سيعودون، ويجعلونك تنتظرهم حتى الصباح كي تبقى هنا، ثم لا يأتون.

مشيتُ بتثاقل حتى وصلتُ الباب الخارجي لصالة المسرح العسكري، حيث كان يجلس خالد الحارس اليافع نصف نائم محتضناً بندقيته ذات المخزن الفارغ من الطلقات كما هي الأوامر الصارمة. لو كان هنالك شيء اسمه عناية إلهية، لكانت هي فقط من تحميه وتحمينا من أي هجوم مباغت. فعلى الرغم من أننا وسط دمشق إلا أنه سبق وأن حدثت عدة عمليات تفجير قريبة منا، أطاحت إحداها بالعشرات من المارة، وبجميع الواجهات الزجاجية للمحلات والمكاتب على مدى مئتي متر، بما فيها الواجهات الزجاجية الثلاث الضخمة لهذا المسرح، لتستبدل لاحقاً بألواح خشبية حَجبت الضوء عن داخل الصالة، محيلةً المسرح إلى قبر مغلق ومعتم ورطب. يكفي فقط أن يرفع أحد المارة مسدساً ويفرغ طلقة واحدة في جسد الحارس المسكين القادم من الشمال، والذي لا يملك رصاصة واحدة في مخزنه ليرد عليه. كنا جميعاً نتندر بأنه لو رمى أحدهم قنبلة من الخارج إلى داخل الصالة لقُتلنا جميعاً قبل أن نعرف ما حدث. نتندرُ بالموت، ونحيله إلى مزحة يعقبها الضحك، لأن أمراً كهذا لو أُخِذَ بجدية لما بقي أحد في هذا المدينة، أو لما بقيت عقولنا في أماكنها. كان علينا أن نجد الحل الذي يساعدنا على المتابعة، على الهروب إلى الأمام، على أمل ضبابي بأن يوماً سيأتي في المستقبل تنحل فيه جميع أزماتنا، كلمسة نبي، حتى ولو كان ذاك أقرب إلى المعجزة. ببساطة، في النهاية مهما فلسفنا الموضوع فإنه يبقى بضحالة وتعاسة جملة «بكرة تُفرج»، الشعار العمومي لجميع العابرين الذين كنا نراقبهم كل صباح من خلال واجهات المسرح الثلاث الزجاجية الضخمة، قبل أن تتحطم ويحجبنا الخشب المُصنع عن تشاطر الأمل.

من الداخل أتى الحارس الثاني وهو يجر قدميه غير مستيقظ تماماً، ليوقظ الحارس النائم وليستلم نوبة الحراسة بدلاً عنه، بينما كنت أدخن سيجارتي الأولى مستمتعاً بشمس أشرقت للتو على دمشق ستختلف منذ اليوم عن

دمشق سنواتي الماضية. فهنالك من تصحو الآن وترتب حقيبتها، واضعة فيها كل ما تريد أخذه معها، وكل ما تظن أنها لا تستطيع الاستغناء عنه، وأنا.. أنا لست بين ذلك كله. دمشق منذ اليوم ناقصة.

استيقظ خالد بانتهاء فترة مناوبته، وبعد أن غسل وجهه طلب مني سيجارة وهو يمتطي الموتوسيكل الخاص به، ليمضي إلى فرن المزة كما كل صباح من أجل يُحضر خبز الصباح إلى عائلته النازحة من حلب.

سألته لأتأكد:

– رايح ع المزة؟.

هز رأسه بالإيجاب وهو يشغل الموتوسيكل بقدمه ليهدر صوته كحصان بري يتأهب للعَدْوِ في البراري. قفزت خلفه وأنا أقول له:

– أنا رايح معك.

وما أن أنهيتُ جملتي، حتى شدَّ خالد يده على مقبض البنزين لينطلق بنا الموتوسيكل مزمجراً في شوارع مدينة لم تدر بعد أي صباح تبدأ به يومها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12

اللون الأسود كان نفسه. لم أعرف إن كانت عيناي مُغمضتان أم لا، ففي الحالتين كان السواد فيهما حالكاً بالدرجة ذاتها، دون أي بصيص نور يداخله. كررتُ فتح عينيّ وإغلاقهما محاولاً تبين أي فارق، إنما دون جدوى. محاولاً تسريع عميلة الدخول في حالة النوم، قررت القيام بواحد من تمارين عدة اخترعتها للمساعدة على تجاوز القلق الليلي المزمن الذي كنت مصاباً به وسط كوابيس الحرب المسترسلة كأحد مسلسلات «البيست سيلر» الدرامية التي لا تنتهي. سيكون علي بعد عدة سنوات الصمت ما يقارب الدقيقة وأنا أبحث عن إجابة وافية لسؤال صديقتي التي لم تعش الحرب:

– ولماذا لم تكن تستطيع النوم في تلك الفترة؟

قبل أن أجاوب ببساطة، لا أعرف إن كانت قد فهمتْها تماماً، بأنها أحد الأعراض الجانبية التي قد تحدث لك عندما تصابين بالحرب، تماماً مثل أي مرض آخر.

في حقل الرؤية، كان المشهد ينساب بحركة جانبية، كما لو من خلال كاميرا على مستوى الأرض، «شاريو يمين» بلغة السينما، كنت أرى حقولاً ممتدةً من الحشائش الخضراء المتماوجة باتزان مع هبات الريح، حقولاً ملونة بخضرة فاتحة تمتد حتى الجبال الأربعة التي تحرس مدينة طفولتي «سلمية» من الغرب، تابعتْ اللقطة الذهاب يميناً لتستقر على ساقي وأنا أقف مديراً ظهري للمشاهد. من قدميّ الغائصتين في الحشائش، تعلو الرؤية كما لو أن الكاميرا تستعرض جسدي من الخلف، بحركة Tilt Up، حتى تصبح الصورة الكلية لقطة Wide لي وأنا أقف مديراً ظهري ناظراً إلى بانورامية المشهد، وسط الحشائش المتماوجة كبحر أخضر يمتد من قدمي إلى أقدام تلك الجبال الأربعة. كنت في الثامنة من عمري.

كان تمرين النوم هذا مستمداً من صورة، وذكرى قديمة. ذكرى تعود لعام 1984 لنزهة عائلية، وصورة لي خلالها وأنا في الثامنة من عمري وسط حقل أخضر يتصدر الجبال خلفي.

رفعتُ رأسي قليلاً ونظرتُ نحو القلعة المستديرة الرابضة على قمة جبل «شميميس» البركاني الشكل. كان تعلقنا نحن أبناء هذه المدينة بهذا الجبل وقلعته كتعلق أبناء مدينة «كاتانيا» الصقلية ببركان «أيتنا» النشط دوماً. سمعت أخي الأكبر يهمهم خلفي، التفتُ نحوه، كان ببزته الكحلية وقفازيه الأبيضين، فبادرني:

– لا تخف، ما زلتَ بعيداً عني، وقريباً مني.

بحثت عن أبي، كان منشغلاً بسقاية وروده، خاصة نبتة الفل المفضلة لديه، والمزروعة في صفيحة زيت صدئة مربعة الشكل. كان أبي يبتسم بسرور وهو يسقي فلته كطفل من أطفاله، بينما هي تنثر أريجها حوله ممتنة. أما أمي فكانت تنشر الغسيل في أرض الديار، ملابسنا الملونة كقطع من الحياة تتساقط منها قطرات الماء دموعاً على فراق أصحابها الذين غدت خالية دونهم. اللقطات كانت تتتابع بطيئة، قِطتنا التي كانت فرداً من الأسرة تُغمضُ عينيها باطمئنان عجيب تحت أشعة الشمس الدافئة. لم يكن ذلك حلماً، فقد كان ملوناً. كانت تلك حياتي، هذه الملابس المتجاورة التي تقطر دمعاً هي ملابسنا أنا وأخوتي، نحن الذين شَتتنا الزمان كلٌ في بلاد. سمعت تلك الجملة بنفسي مع أنها جملتي كما لو أني أشاهد فلماً سينمائياً. كانت الألوان تبدو باهتة قليلاً كألوان أفلام سنوات السبعينات.

قالت لي حنان:

– لماذا تفعل ذلك؟!

كان صوتها يأتي ممطوطاً، متقطعاً، عميقاً ومُتعِباً، متداخلاً مع صداه المتردد. أردت تجاهلها لأستمر في تسلسل ما أرى. تمسكت بالصور أمامي متشبثاً بألوانها وبكل تفصيل من تفاصيلها التي كانت تنفلت مني متلاشية مع إلحاح صوت حنان:

– لماذا تفعل ذلك؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13

نظرتُ حولي، لم أر شيئاً، ما زلت مكفّناً بالسواد. فقط في البعيد لمعتْ دفقات حمراء من رصاص رشاش مضاد للطيران خلف زجاج شرفتي المطلة شرقاً. كنت غارقاً في العتمة. بحثت عن هاتفي الجوال لأرى كم الوقت، فوجدت أني أمسكه. كان ملتصقاً بأذني وصوتٌ بعيد يخترق رأسي بهدوء كما لو أنه يأتي من داخله.

–.. عم تسمعني؟.. أنت هون؟.. عم تسمعني؟

أجبت بأوتوماتيكية، أو هكذا حسبت.

– إي.. إي..

أشعلت المصباح، كما أظن، لكن سواد العتمة لم يتغير. بدأت أتبين الصوت والكلمات التي تصل دماغي ثقيلة غير قابلة على الهضم.

– ما قدرت ما اتصل فيك. بدي أفهم كيف بتعمل هيك!

حاولت أن أركز أكثر لأفهم الكلمات التي كانت تعبر من الهاتف متجاوزة وعيي، فلا أعرف إن كنت أتخيلها، أم أخمنها، أم أسمعها.

– ليش بنص الحكاية بتوقف! وبتنهي!

كان صوت حنان بالفعل هو الذي يرن بهدوء عميق كمحيط. لم أكن أحلم أو أتخيل. أجبت بأوتوماتيكية، مجدداً، أو هكذا حسبت.

– إي.. إي..

– عم تسمعني؟

– إي أكيد.. أديش الساعة؟

بدأت أفهم ما تقوله وقد بدأ دماغي يصحو بلزوجة تقدم حلزون.

– الساعة تنتين.. وخمس دقائق. آسفة.

كنت قد بدأت أستعيد إدراكي الذهني الطبيعي خارجاً بدماغي من سباته.

– بعرف أنو وقت متأخر، بس أنت أكيد ما بتنام قبل الصبح. أو أني صحيتك؟

– لا طبعاً.

قلت كاذباً ومتثائباً.

– طيب أنا آسفة. خلص برجع بحاكيك بعدين، آسفة ما توقعتك نايم! بس ما قدرت أمنع نفسي أتصل فيك.

– ولا يهمك، مو مشكلة.

– خلص بنحكي بعدين. تصبح على خير.

– وأنت بخير.

قلتها متأخراً ثلاث ثوان عن الوقت الذي يُفترض أن أجيب به، قبل أسمع صوت إغلاق الخط على الطرف الآخر. ارتميت برأسي للخلف على وسادتي مطمئناً إلى أن جمجمتي لن تتكسر عليها. ماذا تريد مني حنان في الساعة الثانية وخمس دقائق صباحاً؟ لماذا لم تستطع منع نفسها من الاتصال بي؟ نظرتُ إلى حيث ما تزال تلتمع رشقات الرصاص الأحمر لمضاد الطيران دون أن يتمكن من اصطياد ذلك الضوء الفضي الذي يحوم فوق الغوطة الشرقية. لماذا أتوقف في منتصف الحكاية؟ لماذا أنامُ مبكراً؟ لماذا أفوّتُ بنعاس اتصالاً كهذا من حنان؟! هل فوتُّ فرصة هامة؟ طز.. لا تحزن على ما مضى. قد علمتني الحياة والحرب ذلك بقسوة، فكل تفصيل سيتكرر لنعيشه من جديد طالماً أننا أحياء. اهتز زجاج الشرفة على دوي انفجار بعيد ليختفي بريق الرصاص الأحمر بعد ذلك، بينما كان الضوء الفضي يحوم مبتعداً، حاكماً السواد وحده. أغلقتُ عينيّ فلم تتغير درجة السواد، وضعتُ ذراعي فوق عينيّ لأزيدَ السواد عتمة، كما هو شأني دوماً حين أنام.

أي تمرين علي القيام به الآن لأنام مجدداً؟ لأفكر بشيء جميل، شيء متفائل، شيء يمنح السكينة والسلام في سواد هذه العتمة، أبيض كنورس لا يترك البحر ولا يهاجر، صوته يهمس باسمك في أذنك، فترى أحجار شوارع دمشق تزهر برومنسية طفولية كقصيدة لنزار قباني، لتمشي على ياسمينها الأبيض بقدميها الحافيتين.. لارا. خذيني في هذيانك أيتها المزّملة بالبياض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

14

كان المصباح قرب سريري مناراً حين فتحتُ عينيّ على قرعٍ للباب على عجل. فتحتُ ببطء، دخلتْ مروة وهي تتأففُ من الحر كعادتها. قالت لي أنها لا تملك متسعاً من الوقت للجلوس، ولكنها «اشتهتني» بكيلوغرام من الكنافة النابلسية من محل حلويات «نبيل نفيسة» أثناء مرورها بساحة عرنوس. ذكّرتها معاتباً بأني أفضّل أن تتصل بي دوماً قبل المجيء، فأجابتْ ضاحكة: – بتخاف أكبس عليك وأنت مع وحدة تانية.

ضحكتُ بنصف إنكار. كانت في قرارتها تعرف أنه هنالك من يشاركها بي بالتأكيد، واحدة، أو ربما أكثر، وهذا ما كانت تخفيه جملتها المازحة. لكنها في الوقت نفسه كانت متأكدة، كما أعتقد، بأنهن جميعهن إن وجدن فهن عابرات، لأنني ببساطة لا أستطيع الاستمرار مع من يدخل عميقاً في حياتي، ومن أجده يقيد تفاصيلها، ولأنهن بالمقابل لن يتحملن الاستمرار مع شخص له طبعي وضجري، وغموضي الذي لا قاع له ولا جدوى. كانت مروة وحدها القادرة على ذلك، وطمأنينتها كانت في ثقتها هذه.

جذبتها نحوي لأنسيها فكرة كتلك. قبلتني على عنقي مؤكدةً من جديد بأنها لا تملك الكثير من الوقت. لم يكن ذلك عذراً، فلطالما مارسنا جنساً سريعاً على الكنبة الصغيرة المتربعة قرب باب الشقة كحارس دائم. تلك الكنبة المخملية بلون الدم، والتي كانت لا تصلح في موقعها هذا إلا لأمر كهذا. لم أُلح، فهنالك ما كان يشعرني بالدوار، فيجعل رأسي ثقيلاً غير راغبٍ بشيء، كان ذلك الاتصال الليلي المفاجئ لحنان. ما الذي كانت تريده؟ لماذا تتصل بي ليلاً محطمةً دفعة واحدة كل ما بيننا من مسافات وعوائق علينا اجتيازها، لو رغبنا؟! لربما هي كذلك، تفعل ما ترغب به دون رقيب ذاتي كالذي أملكه داخلي، لا تراقب نفسها كما أراقب نفسي خوفاً من انكسار تواتر حياتي كبندول معلق، أو خشية ارتكاب فعل أحمق يودي بي، كوني أعزل دون حماية. ما قصة التوقف في منتصف الحكاية! أي حكاية هذه!

– هووا!.. وين شردت؟

أيقظتني مروة من شرود تسلسل أفكاري.

– تشربي قهوة؟

– قلت لك ما عندي وقت، عندي كذا شغلة لازم خلصهن.

– مانك خايفة من أبو عليّ خبية؟

أجابت دون اهتمام:

– مين هاد؟!

امبارح قال أنو بدو يضرب ميتين قذيفة هاون ع الشام، بمناسبة الانتخابات.

ابتسمتْ ببساطة كأن كل ذلك لا يعنيها، أو كأنها تحيا في مدينة أخرى.

– لا ما بعرفو، يلا باي.

قبلتني ثم توجهتْ خارجة عبر باب الحمّام بخطأ جغرافي ترتكبه دوماً. أشرتُ لها إلى حيث باب الخروج.

– من هون.

لكنها كانت قد دخلتْ الحمام بالفعل.

– ما بعرف ليش بضل خربط بالاتجاهات عندك!

قالت ضاحكةً، قبل أن تغادرني مطقطقة بصندلها الذهبي على الدرج الخشبي العتيق، من طابقي الرابع وحتى الطابق الأرضي.

رميت بنفسي على الصوفا الحمراء، نسيتُ أن أسأل مروة إن كانت قد أدلتْ بصوتها في الانتخابات، وبذلك فوتُّ على نفسي إحدى تعليقاتها المضحكة. تنقلتْ يَدِيْ بمتوالية رتابة ما تقع عينيّ عليه، فأمسكتُ الريموت كونترول وأشعلتُ التلفزيون دون صوت، ثم استللتُ سيجارة من علبة السجائر التي باتت ليلتها على الطاولة مجاورةً لجهاز الكومبيوتر، بعدها أشعلتُ الكومبيوتر الذي كان في وضع السبات بلمسة من إصبعي. كان ملف الرواية ما يزال مفتوحاً على السطر الأخير الذي كتبته في الليلة السابقة قبل أن أرسلهُ لحنان عبر البريد الالكتروني. قرأت نهاية الجملة الأخيرة: «.. مزمجراً في شوارع مدينة لم تدر بعد أي صباح تبدأ به يومها.»

نظرتُ نحو التلفزيون الصامت. تنقلتُ بين قنواته دون أرفع الصوت، فتتابعت على شاشته مشاهدُ الأحياء المدمرة، والدبابات المختالة بجوف ممتلئ بجنود يخافون الموت كأي بشر طبيعيين، لقطات بعيدة لاشتباكات عنيفة، صور انفجارات ضخمة، جنود مغبرين بوجوه مرهقة تبتسم كما يفُترض بها لمذيعة التلفزيون الجميلة المسلحة بميكرفون مصوب نحوهم، نازحون في خيام، طوابير من المتعبين أمام مراكز التصويت الانتخابية، أرتال من المهجرين يحملون صرراً على رؤوسهم هاربين من قصف ما، جثث مبللة ومصفوفة بعناية على حافة نهر قويق في حلب، ثم فجأة، طبق اليوم، مقلوبة الرز بالباذنجان واللحمة. أن تصبح الحرب هي الحالة الطبيعية للحياة هنا هو ما أخشى كل صباح أن أستيقظ عليه. بحثت على اليوتيوب عن أغنية لعفاف راضي، وضعت الصوت على أعلى درجة، ثم مضيت لأعد قهوتي في المطبخ

بسيجارة غير مشتعلة في فمي، وأنا أغني بصوت عال مع «عفاف»، وبفرح يكسر حزناً من ألحان بليغ حمدي: وحدي قاعدة في البيت

فكرت في حالي وبكيت

وبس.. دا حرام

لم أكنْ أزعج أحداً، طالماً أن البناء الذي أسكنه بطوابقه الأربعة خالٍ من أي مقيمين غيري بعد رحيل بقية الجيران، بينما الدائرة الحكومية التي تقع في الطابق الأول مغلقةٌ اليوم باعتباره يوم عطلة لمناسبة وطنية. عدت للصالون وأشعلت سيجارتي لأرتشف أول رشفة من القهوة، ولأرى مع دخاني الذي نفثته اسم حنان ظاهراً على شاشة جوّالي، معلناً أن اتصالاً فائتاً منها قد وردني دون أن أنتبه عندما كنت مشغولاً بصنع قهوتي الصباحية.

– حسناً، ستعتقد الآن أني منزعجٌ منها، ولذلك لا أجيب على اتصالاتها، أو أني أنام كهرٍّ كسول.

قلتُ، وضحكتُ وحدي بصوت عال أيضاً، مثابراً على العادة التي قررت مداومة القيام بها وأنا بكامل قواي العقلية، للحفاظ على ما تبقى منها.

– لتعتقد ما تشاء، هي ليست أمي.

ضحكتُ مجدداً لأمنح نفسي الثقة اللازمة لبدء يوم جديد في هذه المدينة التي تستطيع أن تمنحك لذة الحياة بسلاسة، ثم تُرديك في قاع الكآبة كعاهرة محترفة، وبالسلاسة ذاتها.

– إنها فقط محررة روايتي.

قلت لنفسي مؤكداً، لكن وفي الوقت نفسه، ذاك ما كنت غير متأكدٍ تماماً من بقائه بهذا الشكل. أعدتُ مجدداً النظر إلى شاشة الكومبيوتر قارئاً آخر ما كتبتُ: «وما أن أنهيتُ جملتي، حتى شدَّ خالد يده على مقبض البنزين لينطلق بنا الموتوسيكل مزمجراً في شوارع مدينة لم تدر بعد أي صباح تبدأ به يومها.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

15

– بدك تعمل تشويق على طريقة المسلسلات اللبنانية بالتمانينات! بتركب بطلك ع موتوسوكيل وبترميه بشوارع الشام ليختفي وما نعرف إن كان رح يلحق بلارا أو لا! شو هالحبكة العظيمة!.

قالتْ حنان منفعلة وهي تميل بجذعها نحوي بنظرة حادة مُحذرة بينما تأرجحت سلسلة ذهبية لم أنتبه لها قبلاً في فتحة قميصها متدلية من عنقها. ببساطة أردت أن أجيبها: وما شأنك أنت! هذه روايتي وأنا حرّ، أكتبها كما أريد، وإن كنتُ أريدُ أن أنهي روايتي برمي شخصياتها في نفق معتم ليضيعوا فيه فهذا شأني وحكايتي. لكنها تابعت بنبرة قاسية كما لو أنها سمعتْ ما أفكر به:

– أنت مفكر حالك حر تكتب على كيفك! في شيء اسمو الأمانة الروائية، متلو متل الأمانة الأدبية والتاريخية. أنت ما بيحقلك تلعب بقرائك على كيفك وتستخف فيهم، الرواية ليست سيرك.

بدأت نبرتها تزعجني، وما بدأ كحوار استخففت بالتعاطي معه كسلاً، تحول إلى محاكمة ارتجالية غير متوقعة لما أكتب. هذه النبرة أفسدتْ صباحي، وكذلك هذا النوع من الجمل الفارغة: «الرواية ليست سيرك»، هه! رغبتُ أن أصرخ معانداً كطفل: «الرواية سيرك، الحياة سيرك، وما نحن إلا مهرجون في سيرك عظيم». مع ذلك حافظت على هدوئي المستفِز وقلتُ مبتسماً بسخرية مضمّنة، دون قدرة على إدراك كيف تحول حوارنا المعرفي الهادئ إلى ما يشبه شجاراً بين أزعر وبلطجي في إحدى حواري دمشق الهامشية:

– وأنت ليش متحمسة إلى هي الدرجة!

أكثر ما أزعجني في كل هذه الحدث غير المنتظر كان دخان غليون سالم، صاحب دار النشر المتربع صامتاً على كرسيه خلف مكتبه كإله حجري، أو كحكم نزال بين ملاكمين من وزنين مختلفين.

احمر وجه حنان، وربما سمعتُ طقطقة أسنانها الغاضبة، فالتقطتُ منفضة السجائر الزجاجية من على الطاولة الصغيرة الفاصلة بيننا ووضعتها على حافة المكتب بجانبي، مشعلاً سيجارة في الوقت نفسه لتبدو حركتي طبيعية، إذ أحسست أنه من الممكن، وبغفلة من الوعي في أي لحظة، أن تمسك حنان بتلك المنفضة لتقذفني بها.

كان الموقف بأكمله كاريكاتورياً بالنسبة لي، وهذا ما لم أتحمله. أنا هنا أتلقى محاضرة في أخلاق وأسلوب الكتابة من محررتي، التي لم أتقبل كونها محررتي إلا منذ مدة وجيزة، أمام عيني سالم الذي هو صديقي بشكل ما، دون أن يكنّ أحدنا للآخرِ ما تفترضه الصِداقة من احِترام. صِمته وعدم تدخله

في الحوار كان يعني أنه كان مستمتعاً بما يرى أمامه، أنا الصامت بهدوء مصطنع، وحنان المنفعلة لأسباب لا تقنعني، سوى برودي أمامها. أما أنا فلا أعرف كيف تطور حديث عادي إلى نقاش حاد لهذه الدرجة! ولا كيف خلال أقل من اثنتي عشرة ساعة، تلك الفتاة التي أيقظتني بصوتها الجميل ليلاً وهي تردد «آسفة»، أراها الآن على استعداد للقفز علي وعض رقبتي بأسنانها كذئبة متوحشة!

بحركة حيطة لا إرادية وغير ضرورية لففت رقبتي بشالي التركواز جيداً. سمعت حنان تصفني بأني أريد أن أكون غيوم ميسو آخر، وكنتُ قد تُهت عن حديثها في تأملاتي فلم أنتبه إلى كيف انتهتْ هي إلى تشبيهي به. على كلٍ أنا أحبُ أسلوبية كتابته، وحبكته المتينة، ولكني لا أعتقد أنها تشبه كتابتي في شيء. أجبتُ نفسي على اتهاماتها برضى دون أن أفتح شفتي لها بكلمة مما أفكر. علي أن أعترف بأنه من الممكن أن أكون مستفِزاً جداً، ففي نقاش كهذا كنت عادة ما أميل لأن أكون مجادلاً ومحاججاً شرساً، متكئاً على ثقافتي لأتمكن من جر خصمي إلى التناقض مع نفسه. لكني، وبعد أن أكسبني ذلك الكثير الكارهين، الذين لم أكرههم يوماً، مسلماً بأن النقاش مهما احتد فلا أثر له على العلاقة مع الشخص المعني، وبالطبع يبدو أني كنت مخطئاً، مللت ذلك كله في السنوات الأخيرة. فأنا لم أعد أريد تغيير الناس، ولا هذا المجتمع، ولا كل ما حولي، ما أريده فقط هو ألّا يُغيرني شيء، وألّا يغير شيء من أراهم يشبهونني. لذلك أصبحتُ أفضل البرود والتجاهل متجنباً صراعات الديكة هذه، ذلك هو ما يستفز البعض بفهمه على أنه تعال وغرور.

– بتعرفْ، بالأول فكرت أنو هي رواية جيدة، لكن يبدو أنك مجرد مؤلف آخر لامنتمي ولامبالي.

أعادتني جملتها هذه من شرودي إلى اللحظة الراهنة أمامي. كانت تلك الجملة التي قصمت ظهر الخيال وأعادتني إلى صقيع الواقع. ها قد كُسرت علاقة الاحترام ما بيننا، وهذا الشيء الوحيد الذي لا أستطيع تحمله في أي علاقة أياً كان نوعها، لذلك منعتها عن المضي قدماً في ما تقوله بوقوفي فجأة لأتوجه خارجاً، دون أي التفاتة خلفي، أو كلمة.

لا أعرف إن كان سالم قد حاول اللحاق بي أم لا، ولكن لسببٍ ما أعتقد أنه لم يفعل ذلك. بالتأكيد سيتصل بي لاحقاً محاولاً إصلاح الموقف، ففي النهاية هو يريد هذه الرواية، لكنه أيضاً يريد أن تكون على مقاسه وبمواصفات دار النشر التي يديرها، وجمهور القراء الذي سيبتاعها، عداك عن رغبته أيضاً في الاستمتاع بتحطيم غروري المفترض من قبل شخص آخر أمامه، لأصبح كاتباً مُروَّضَاً، روائياً أليفاً كحيوان منزلي مسل لا يزعج، يملأ أوقات فراغ القراء بألعابه. حاولت استعادة هدوئي لكن علي أن اعترف بأني كنت غاضباً في

أعماقي. اجتزت منطقة جسر فكتوريا صاعداً باتجاه ساحة المحافظة مخترقاً زحام العابرين على الرصيف بالاتجاه المعاكس أمام سينما الأهرام. يبدو أن المئتي قذيفة هاون التي يفترض أن تسقط اليوم لن تسقط لسبب ما، ربما كان غارات البارحة على الغوطة الشرقية، أو ببساطة بسبب تغير مزاج ما في مكان ما، أما التهديد فلا يطير أدراج الرياح، إذ أنه كامن دوماً.

التفتُ إلى داخل مقهى الهافانا الذي لم أحب برودته يوماً دون أن أتوقف عن المسير. لا أحد من أصدقائي في الداخل. حتى علي الذي عادة ما يحضر صديقاته الطارئات إلى هنا، بعيداً عن أعيننا وعن عينيّ زوجته، ليس هنا. من بقي لي من أصدقائي؟ ما الذي يزعجها في أن أنهي الفصل بهذه الطريقة! أو حتى لو بَترتُ حكاية لارا! وليكمل كل قارئ سلسلة الأحداث بعد ذلك كما يتخيل. ليس سيئاً أن أشرك القارئ معي معطياً إياه الحرية ليضع نهاية الحكاية كما يحب أو يريد، وليتخيلها هو، حراً بعيداً عن عينيّ أي رقيب، وحتى بعيداً عني وعن حنان. إنها من جديد ديمقراطية الكتابة وحرية القراءة. انعطفتُ داخلاً سوق الصالحية، عابراً الحاجز الأمني على مدخله وأنا أريه هويتي على عجل، تحسس العسكري بثوان جسدي بحثاً عن سلاح لا أحمله. أعلى مدخل مسرح الحمراء كان هنالك لافتة كبيرة لعرض من عروض المسرح القومي من إخراج أيمن زيدان. في النهاية هي محررة وليست روائية قلت في نفسي. كان يجب أن ألقي بتلك الجملة في وجهها قبل أن أخرج. لماذا تريد أن تقيدني خبيرة القواعد الأدبية بقواعدها! تذكرت محاكمة الكاتب المسرحي «كورنيه» عندما خرق قانون الوحدات الثلاث في كتابته لمسرحية «Le Cid»، ولكني لم أستطع أن أضحك كما أفعل عادة.

عبرتُ أمام مبنى البرلمان محاذياً الصف الطويل لسيارات «الكامبري» السوداء المخصصة لأعضاء مجلس الشعب. لكن ذلك عذرها أيضاً. إنها ليست روائية. إنها لا تكتب ولا تجابه يومياً حكايةً تريد أن تتمرد عليها. لم يستعص عليها خط حدث يريدُ الانفلات والتطور بلا منطقية، ولا أرغمتها شخصية أن تترك نهايتها حرة، لا كما ترغب بإنهائها. لها عذرها حنان، إنها محررة وليست روائية! مهمتها أن تكون الرواية جيدة. معاناة الكتابة والهذيان الوجودي المتسرب من قلم مؤلف لا يعني لها شيئاً. هذه الأشياء بالنسبة لها مجرد شعارات مزخرفة نوهم القراء بها نحن الكتّاب لنعطي لأنفسنا قيمة مُضافة، كأننا مخلوقات عُلوية مختلفة عنهم، نحيا كما لا يحيون، نمتلك ما لا يمتلكون، ونرى ما لا يرون، كـعرافي الآلهة القديمة أو مثل «شامان» بملابس عصرية. وفي الحقيقة ما هي إلا مجرد لافتات لا قيمة لها، كأكوام لافتات المترشحين لانتخابات مجلس الشعب المنتشرة معلقةً فوق بعضها البعض على تقاطع الصالحية مع شارع العابد بشعاراتهم التي لا تعني أحداً، ووجوههم التي لا

يعرفها أحد، تلك الوجوه التي تضحك في صورهم المعلقة ساخرة من جموع العابرين تحتها، وهم يحاولون إكمال حياتهم دون شعارات.

مع الضوء الأخضر لإشارة المرور، انطلقتُ عابراً الشارع من تحت اللافتات مصحوباً ببقية المشاة حولي منتقلين سوية إلى الرصيف الآخر من شارع العابد. ابتعتُ سجائري من بائع السجائر المداوم قرب مقهى «الروضة»، ثم دلفتُ إلى الداخل. كانت طاولة خليل فارغة، لا بد أنه في الصحيفة أو في منزله. محمد لم يكن هناك أيضاً. ربما هم في صومعة بندر عبد الحميد القريبة يحتسون كؤوس العرق على أضواء بطاريات المصابيح الخافتة. جلتُ بنظري على الطاولات بحثاً عن بقية أصدقائي الأكثر ثباتاً في هذه البلاد، فلم أر أحداً. قبل سنتين كان من الممكن أن نجتمع عشرين شخصاً مصادفة هنا في أي وقت. اليوم لم يبقى سوى الثابتين، خليل، محمد، وبقية من بعض الأصدقاء الذين ما يزالون يقامون إغراء الرحيل، أو لا يجدون إليه سبيلاً. من بقي منهم؟ اتصلت بموسى، أجابني كعادته وهو يضحك:

– يلا جاييك.

ذلك لم يكن يعني بالضرورة أنه سيصل سريعاً. فالقادم من «جرمانا» إلى شارع العابد عليه المرور بما لا يقل عن خمسة حواجز عسكرية، أي ما قد يستغرق ساعتين من الزمن. طلبتُ فنجان قهوة. هنا تأتي القهوة بكؤوس صغيرة، ونادراً ما تكون بمذاق جيد، لكن ما يعود بي إلى هنا دوماً هو دفء الأحاديث مع الأصدقاء. لم يعد لنا أماكن كثيرة تشبهنا، وكون هذا المقهى بلا هوية حقيقية يجعله مستقراً ممكناً لنا حتى الآن. جلتُ بنظري على الطاولات الكثيرة، الشباب والصبايا في العمق كالعادة يدخنون الأراكيل ويضحكون بصخب. الرجال الأكبر عمراً في القسم المطل على الشارع، أغلبهم يلعب الطاولة، وبعضهم يشاهد التلفزيون أو يراقب المارة فقط. العشاق في القسم الشتوي، الأكثر حميمية وسرية، وكذلك ذوي الهيئات المثيرة للشبهات، من يتحدثون بصوت منخفض وهم يديرون صفقات ما بشكل مشبوه فاضح. أما هنا على طول جدار الباحة الداخلية للمقهى فقد توزع الصحفيون والفنانون والكتاب، أو من بقي منهم، على عدة طاولات تتوسطها طاولة «أبو حالوب» بجوار المدخل، كعادتها منذ أكثر من خمس وعشرين عاماً، وكعادته مذ وجد معنى لحياته كناطور متطوع لمثقفي المقهى الخارجين والداخلين، الحاضرين والغائبين والمتبدلين.

حسناً، ليس هنالك من أعرفه هنا، إذاً لأشرب قهوتي وحيداً وسط هذا الفراغ. سمحتُ لنفسي باستعارة صحيفة منسية على طاولة فارغة مجاورة، ومضيتُ أقلب صفحاتها بحثاً عن مقال قد يهمني. رن هاتفي مترجرجاً على رخام الطاولة، نظرتْ، كانت رسالة من حنان:

– «بعتذر، ما بعرف ليش انفعلت هيك، الموضوع مو مستاهل، وأنا لساتني معجبة بروايتك. فيني شوفك؟!»

تذكرت جملة قالتها لي في لقائنا الأول:

– «بتعرف أنو أنا مستمتعة بروايتك».

إذاً، الموضوع «مستاهل» وأكثر. إنها ليس فقط محررة لروايتي، إنها قارئة أيضاً، ولكن هل لذلك تنفعل! هل تريد حنان أن تمضي الحكاية إلى ما تريد! أليس ذلك من حقها أيضاً كقارئة ضمن حرية الحكاية وديمقراطية القراءة؟ لقد تورطت حنان بالحكاية، وتحولت من محررة خارجية حيادية إلى قارئة اصطادتها شبكة الأحداث. حنان التي لم تقرَبها الحرب ولم تحرق أطراف ثوب حياتها بلهيبها، والتي عاشتْ محافظة على دمشقها الخاصة، بألوانها وابتسامتها وعبق ياسمينها بلا حرب ولا أوجاع، دمشق لا تشبه دمشقي اليوم، ولا دمشقنا البائسة التي نجتر بها ألامنا اليومية. حنان التي لا تريد أن تنتهي الحكاية نهاية مفتوحة على كل احتمال، ففي الاحتمالات تكمن الفجيعة. لكن ذلك ليس بيدي، أنا لست سيد الحكايات، ولا أريد أن أكون. لا أريد أن أقسر الحكاية، أريد أن أدعها حرة طليقة منفلتة إلى ما تريد. ثم ما كل هذه السخافة! لارا سافرت وانتهى الأمر. هل علي أن أجتر بؤس حكايتي من جديد.

في الصفحة السابعة كان هنالك مقال صغير يتحدث عن حالات انتحار وقعت مؤخراً في دمشق، فتاة شنقتْ نفسها فجراً على شرفة منزلها في حي «مشروع دمر»، فتاة قفزت من الطابق الخامس في شارع 29 أيار، موظفٌ قفز من الطابق الثالث لمبنى البنك المركزي قرب ساحة السبع بحرات في نهاية الدوام. كاتب المقال يعزي ذلك إلى ضغوطات الحياة والمعيشة. ظاهرة مهمة هذه الحالات من القفز في الهاوية، قلت في نفسي. أي نهاية يختارها هؤلاء لحكاياتهم بالقفز في الفراغ.

– آسفة..

جاءني صوت حنان من خلف أوراق الصحيفة التي تستر وجهي. رفعتُ عينيّ منزلاً الصحيفة. لو كنت أضع نظارات لكان علي أن أخلعها الآن عن عينيّ لأراها جلية تقف أمامي بنصف ابتسامة، بسترتها السوداء كحِداد، وعينيها العسليتين المشبعتين بالأمل. تابَعتْ:

– فيني أقعد معك؟

ودون انتظار لجوابي جلستْ على كرسي الخيزران المواجه لي.

– شو تشربي؟

– شاي. ولا قلك، يلا فنجان قهوة.

– سادة؟

– وسط. أنتم الكتّاب بتشربوا القهوة سادة، نحن المحررين بنشرب القهوة وسط، كوننا أنصاف كتّاب.

ابتسمتُ وأنا أشير للنادل من بعيد، دون أن أتأكد تماماً إن كانت تريد أن تكسر الجليد بيننا بنكتة كهذه، أم أنها نوع من السخرية الضمنية. خاصة وأنها تشبه جملة لطالما رددتها في الماضي: «في مسيرة تحولك إلى مثقف، عليك أن تمر بمرحلة القهوة الوسط كنصف مثقف، قبل الوصول إلى القهوة السادة كمثقف كامل. تماماً كوضعك عندما تنتسب إلى الحزب الحاكم، إذ عليك أن تمر بمرحلة النصير، قبل أن تتحول إلى عضو عامل».

–.. عدا أني مستمتعة بكوني نصف كاتبة، وما بيهمني صير كاتبة.

كانت تلك جملة عليَّ أن أتذكرها مستقبلاً، ولكن كيف لي أن أعرف ذلك الآن. نظرتُ في عينيها منتظراً ما ستقوله. كنت أريدها أن تبادر هي وتحدد مسار الحديث، فذلك يعني أن أجبرها بشكل ما على الاعتذار والتوضيح، وأن تتيح لي في الوقت نفسه ممارسة أنفة ترفعي.

أتى النادل بكأسي قهوة صغيرين، لا فناجين هنا. أشعلتُ سيجارة متأهباً للانقضاض على قهوتي. التقطتْ حنان علبة السجائر من على الطاولة.

– بتسمح.

– طبعاً.

أخرجتْ سيجارة، ثم مدتْ رقبتها نحوي وهي تطبق عليها بشفتيها الكرزيتين. مالتْ بجذعها نحوي أكثر مما رجوت. لم تكن ترتدي هذه المرة قميصاً بياقة واسعة، ولكني انتبهتُ إلى أنها قد وضعت بعض «الروج» على شفتيها اللتين كانتا عاريتين هذا الصباح ونحن نتصارع أمام سالم في دار النشر. نفثتْ الدخان بعيداً عني وهي تسعل ضاحكة، بينما أعدتُ أنا الولاعة إلى مستقرها فوق علبة السجائر، وأنا مدرك تماماً أنها نجحتْ بكسر الجليد ما بيننا، وأنها تجاوزت بخفة سنونو مفازة الاعتذار والتوضيح التي حاولتُ فرضها. حسناً، أنت ذكية أيتها النصف مثقفة.

– أنت ما بتدخني؟ ما بتذكر أنك دخنتي المرة الماضية!

– لا ما بدخن، هيك أحياناً بس بيجي على بالي نفّخ. فيك تقول طَشَاشْ. لارا شخصية حقيقية؟ مو؟

أتاني السؤال مباغتاَ. لقد سمحتْ لنفسها أن تدخل إلى أقصى عمقٍ داخِلي، إلى ذلك السرداب الذي أغلقته ورميت مفتاحه بعيداً. ولكن بأي حقٍ تمضي إلى هناك؟ لم أجب، وسرعان ما خفتُ أن تفهم صمتي كإيجاب، لذلك كان من الأفضل أن أفلسفَ الموضوع معطياً إياه بعداً إنسانياً كأنه لا يعنيني وحدي. إنه ربما.. حقاً، لا يعنيني وحدي.

– ممكنْ، لكن لا تنسي أن الحكاية بروايتي هي خلاصة حكايات ناس. لارا وبقية الشخصيات هم خلاصة شخصيات ناس عايشين حواليك، ممكن يمروا جنبك بأي لحظة، حتى لو ما انتبهتي، أو ما عرفتي.

– بس لارا في إلها أساس واقعي. هلأ بتقلي أكيد كونها مستمدة من الواقع ومدري شو! لا، أنا قصدي واقعي عندك أنت. بواقعك، بحياتك، لارا كانت موجودة.

أردتُ أن أغادر مجدداً وأن أنسحب، لكن ذلك كان سيجعل الأمر كمطاردة هر وفأر، ولذلك صمتُّ، إذا لم يكن لدي ما أقول.

– هادا هوي الشي اللي خلاني يمكن أغرق بأحداث الرواية، وصير بدي أعرف لوين رح تروح بالحكاية، وشو بدو يصير بعدين. كل حديثك وشرحك عن «المضربية» وكيف عم تشبك حكايات الناس وتدمجها لتشكل حكاية كلية جمعية، صح، مزبوط، بس كمان أنت موجود. حكايتك موجودة بالرواية، حياتك، شخصيتك، أحاسيسك، خلاصتك إذا بتحب هي الأرض اللي عم تبني عليها هي الحكاية الأوسع بروايتك. يمكن هاد اللي خلاني انزعج من قطع الحكاية فجأة. يمكن لأني متل أي قارئ بدي أعرف شو رح يصير ببساطة. ومتل أي إنسان بدي أعرف شو رح يصير معك، معي، مع اللي بنحبهن، معنا كلنا، لأنه هاد هوي سؤالنا الحقيقي والجمعي هلأ، هون، الآن هنا، لوين رح نوصل بالنهاية؟. ولما بعتلي الفصل بهي الخاتمة، حسيتك عم تهرب، عم تهرب من الوصول لنهاية، لنهايات الناس اللي بتحكي عنهم بروايتك، ما فيك تكتب حكاية تختزل الناس وبالأخير تتعمد أنك تخبي المصائر.

نقلتُ نظري من وجه حنان إلى الوجوه المبعثرة على الطاولات حولنا. ما كل هذا الضحك في انتظار الموت! أي قيامة نرجوها لهذه المدينة! لهذه البلاد، ولنا! عدت إليها.

– شو النهاية اللي بدك نوصل إلها؟ أنا تركت النهاية مفتوحة لأن ما عندي نهاية. كل واحد فيه يكمل ويتخيل النهاية اللي بتناسبه.

– ممكن، ما بقول لأ.

قالت حنان وهي تخلع أساوارها النحاسية السبع، واضعة إياهم قرب علبة سجائري على الطاولة الرخامية، ومحررة معصمها الأيسر من الخشخشة الرنانة المرافقة لكل حركة منها كفرس أصيل.

– بس برأيك، بتعتقد أنه هاد اللي نحن محتاجينه هلأ؟ يعني، شو النهايات التي متوقع أنو الناس تكمل فيها؟ اتطلع حواليك، كل يوم بيموت مية واحد. وكل ما سمعت بنت نعوة شب عم تنذاع بتقول راح علي عريس. ونحن، كل واحد فينا منتظر النهاية، وكل واحد بيتخيلها بالفعل بطريقته، أو بالأصح متل ما بيتأمل.

– أنا ما فيني جمّل النهايات. هاد نوع من الكذب والتزوير يا صديقتي. اتطلعي أنت كمان حواليك، شايفة أي شيء ممكن يبعث التفاؤل! على الوصول إلى نهاية سعيدة!

أردت التوقف عن الاستمرار في هذا الحوار. أو هذا ما كان يجب علي القيام به كي لا أنطقُ بما تجنبت الإقرار به دوماً، فالكلمات حين ننطقها تتحول إلى واقع وحقيقة. لكن الكلمات خرجتْ مسرعة متراصة في جمل بغفلة من حراستي المشددة لها.

– بتعرفي أنو بالحقيقة لارا سافرت، وهو لا قدر يوصلها ولا يودعها، وأنها أصلاً ما خبرته بيوم سفرها الصحيح، وما عرف غير لما كانت صارت بلبنان. وكل قصة الموتوسيكل وركوبه ورا حارس المسرح، هي إضافة لأني ما بدي يكون خط لارا طريق مسدود بالحكاية، متل أي «حارة سَدّ» بين أزقة الشام، بس توصلي لنهايتها المسدودة بتجبرك على العودة واجترار كل خطواتك فيها.

كان الإقرار بالهزيمة أمرُّ من طعم الهزيمة ذاتها. ابتسمت حنان، ونظرت إلى كأس قهوتها مداعبة شفته برقة بأصابعها، ثم رفعت رأسها وهي تقول:

– إذاً صح. لارا شخصية حقيقة، وكانت بحياتك كمان.

ها هي قد أطبقتْ للتو على حقيقة هاربة ومتخفية كناشطٍ تلاحقه أجهزة المخابرات، ببسمة لا تخلو من مكر الانتصار.

– أنا ما عم طالبك بنهاية سعيدة، ولا بشي أمل مخادع. أنا بتمنى بس تتمسك بالإنسان. حافظ على الانسان بحكايتك، هاد أهم شيء. على جوهر الانسان المتمسك بمشاعره الانسانية، والمبالي ببقية الناس حوله. ما لازم نوصل ليوم يصير فيه كل واحد مهتم فقط بنفسه، باحث عن خلاصه الفردي، وغير مكترث بغيره.

في هذه اللحظة رأيت وجه لارا في وجه حنان، الوجه الآخر ربما، كوجه من عاش الحكاية بشكل معكوس. هي أيضاً قد أصابها جَرُب الحرب فترُكت وحيدة. تم التخلي عنها لتبقى هنا، وما كِل هذه الابتسامات والنظراتِ العابقة

بالأمل إلا قشرة حماية هشة، بإمكانها أن تنكسر في أي لحظة ومع أي كلمة كما حدث الآن، هي أيضاً في حكايتي، أو بشكل أدق ربما، تريد أن تكون في حكايتي.

لم أنتبه، لا أنا ولا هي، إلى كفي التي أمسكتْ يدها العارية من الأساور، لتقاسمها بعض الدفء الإنساني فوق صقيع الرخام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16

حسناً، سأكمل. سأكملُ هذه الحكاية التي تحتجّ عليّ، وتحتجُ حنان على عدم إكمالها. كانتْ هذه الفكرة تتأرجح داخل رأسي، وأنا أرغمُ نفسي عليها، أو ترغمُ نفسها عليَّ، وأنا أصعد الدرج الحلزوني الذي يبدو في ليلتي هذه بلا نهاية بدرجاته الثلاث والستين للبناء ذو الطراز الفرنسي من بدايات القرن العشرين والذي صار سكني زمن الحرب. دخلتُ وعلّقتُ مفاتيحي على مقبض الباب، كي لا أنساها وقت الخروج فأعلقُ خارجاً. خلعتُ حذائي وسترتي، ولكن لم أستطع خلع إصرار هذه الفكرة على ذهني. فتحتُ جهاز اللابتوب وقرأتُ مجدداً آخر سطر كنت قد كتبته للمرة الألف.

«وما أن أنهيتُ جملتي، حتى شدَّ خالد يده على مقبض البنزين لينطلق بنا الموتوسيكل مزمجراً في شوارع مدينة لم تدر بعد أي صباح تبدأ به يومها.»

أنا لا أعاني من متلازمة الورقة البيضاء، أنا أعاني من متلازمة حرب المدن الملونة أكثر مما يجب. مدنٌ لا تترك لك مجالاً لتحيا كما تريد، وحربٌ تتدخل بأدق تفاصيل حياتك، حتى التافهة منها، لتقررها هي وتعبث بها، فتتحول حياتك إلى سلسلة عبثية من اللامتوقع. كان على صموئيل بيكيت ويوجين يونسكو وبقية كتاب مسرح اللامعقول أن يحيوا في سوريا، هنا جوهر العبث واللامعقول.

نظرت إلى الساعة، كانت العاشرة والنصف ليلاً. لكن كيف أكمل هذه الحكاية؟ في أي اتجاه؟ هل هنالك من يعلم أين تمضي بنا؟ هل من حقي أن أختار وأقرر مصائر الحكايا؟ وأنا الذي قد تسقط عليّ مصادفةً قذيفة هاون هذه الليلة وأنا في سريري أحلم بغد أفضل، فتنهي حكايتي عند هذه النقطة دون أن أصحو. ألم تمت صديقتي سوزان بهذه الطريقة في غرفتها في باب توما؟ ألم تنطفئ أحلام عينيها في الساعة نفسها التي غادرتُ فيها بيتي على عجل إلى مقهى الروضة؟ هارباً من موتي الفردي إلى احتمالية موت جماعي. فتحتُ على صفحة سوزان على الفيسبوك، جملتها الأخيرة التي كتبتها قبل موتها بدقائق وهي تدعوا الله أن ينجيها ما تزال حاضرة كصورتها المبتسمة.

– «يا رب سترك كنت أذكر الله منذ قليل لا أدري لماذا... نزلت قذيفة قدام بيتي يا رب سترك..».

تذكرت أني كنت في المطبخ لما قرأتها ذلك اليوم. ربما كانت جملتها بشكل ما هي ما جعلني أهرول نازلاً على درجات البناء، كان الموت يحوم قريباً، ولم أعرف بموتها إلا بعد وصولي المقهى بأكثر من ساعة. قرأت التعليقات أسفل جملتها والتي تبدأ بدعوات متضامنة ومزاح تحتمله عبثية الموت والحياة في

الحرب، قبل أن تتحول فجأة إلى نعوات ودعوات بالرحمة مشبعة بالحزن. تذكرت آخر لقاء جمعني بها مصادفة قبل أيام قليلة في دار الأوبرا، خيّل لي أني أرى ابتسامتها وعينيها المليئتين بخيبة بنت الضيعة من هذه المدينة الجافة، ومن هذه البلاد الضّاجة بحروب أكثر مما تحتمل. بحثت على اليوتيوب لأجد اللقاء القصير الذي أجري معها قبل وفاتها بأيام قليلة على هامش مهرجان السينما في دار الأوبرا. كنتُ هناك، ما أزال أذكر بلوزتها البنية هذه. بدقائق قبل «البوست» الأخير لها على الفيسبوك كانت قد كتبت سورة الانشراح. لكن هذا الرب يا سوزان ليس لديه حساب فيسبوك ليقرأ! وإلا لما كان سمح لقذيفة عشوائية أن تنهي ابتسامتك.

«أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ».

شعرتُ باختناق. أشعلتُ سيجارة ومضيت إلى المطبخ على غير هدى لأهرب من ضيق صدري، ولأبتعد عن هذه الكآبة التي بدأت تشد حزامها على رقبتي. فتحت باب البراد وأعدت إغلاقه، تأملت السكر والقهوة والشاي في أوعيتها المتزاحمة على الرف، والبهارات بعلبها الصغيرة المصفوفة بانتظام فوق بعضها البعض، فناجين القهوة في علبتها البلاستيكية الشفافة بانتظار تحطم فناجين أخرى لتخرج وتنزل للخدمة، ولتتحطم يوماً ما في ما بعد بدورها. جملة تأملات وتنقلات دون وعي فقط لأخرج من سكينة الموت الثقيل هذه. انقطعت الكهرباء فجأة كي يكتمل ثقلُ الحالة كما قلت في سِري. نظرتُ من النافذة، كانت مئذنة الجامع منارةً بنور إلهي أخضر يتسرب إلى داخل شقتي. في الحقيقة لم يكن هذا أكثر من عدة مصابيح خضراء تظل منارة طوال الليل، حتى في انقطاع الكهرباء حين يكون الحي وسكانه غارقين بالسواد، فلا يبقى من نور يُستنار به سوى نور الله، أو بالأحرى نور مصابيح المئذنة الكهربائية. للمفارقة، كان اسم الجامع جامع الشهداء.

عدتُ للجلوس أمام اللابتوب، وعلى غير هدى تابعت التنقل كيفما اتفق. وقعتُ على صفحة اسمها «من أجل تسريح الدورة 243»، وهو رقم الدفعة التي تضم حملة شهادات عليا التحقوا بالخدمة العسكرية الإلزامية عام 2010 على أمل أن ينهوها نهاية عام 2011 كما يفترض. لم يكن لأحد منهم أن يتوقع أن تحتجزه حرب طارئة في بلد لم يخض حرباً منذ سنوات طويلة، فيعلق في شباكها، وليفرض عليهم البقاء في الخدمة العسكرية لسنوات وسنوات تمتد دون أن يعرف أحد نهايتها. عدتُ إلى بداية انشاء الصفحة، لأغوص في «البوستات» المكتوبة حسب تسلسلها التاريخي. هذه البوستات التي تدرجت عبر مراحل الأمل، الإحباط، الحزن، الغضب، فاللاجدوى، ومن ثم التسليم. عبر التسلسل الزمني كانت هنالك أسماء تختفي فجأة، لأرى بعدها بقية المشتركين ينعون هذه الأسماء التي قتلتها الحرب على حين غرة. أسماء

أخرى كانت تختفي لتعود وتظهر بهيئات أخرى وملامح مختلفة، وأحياناً بملابس عسكرية مختلفة وأعلام أخرى. البعض كان يختفي ولا يعود إلى الظهور أبداً. أكثر اسمين كانا يتكرران هما آرام شاهين، وأبو جعفر. عرفت أن آرام شاهين كان مسؤول الصفحة. عندما توقفت البوستات، ذهبتُ إلى صفحته الشخصية بحثاً عنه. الصورة الأولى التي رأيتها كانت صورةً لنعش ملفوفاً بالعلم كتب عليه اسمه مسبوقاً بلقب الشهيد. صور أخرى كانت تظهر أبو جعفر بجانب النعش في مشفى تشرين العسكري، وفي سيارة تنقل النعش داخلها. يبدو أنه ذهب وحيداً لاستلام جثة صديقه الذي غدرته الحرب. لا أهل ولا أقارب، فقط هذا الصديق. ذهبتُ إلى صفحة أبو جعفر، على ما يبدو فإنه ما يزال حياً بشكل ما. كانت صورة البروفايل الخاصة به تُظهره يمشي وحيداً متعباً بعينين ذاهلتين على غير هدى، وسط برد وظلمة زقاق لا يشبه أي زقاق في سوريا، كناج وحيد خارج للتو من مجزرة.

أحسستُ بخدر في رقبتي، حركتها قليلاً فآلمتني أكثر. كانت مصابيح الكهرباء في شقتي مضاءةً تصارع نور الشمس القادم من النافذة على احتلال المكان، بينما انطفأ ضوء المئذنة الإلهي لإله لا يظهر سوى في الظلام. استويتُ في جلستي محاولاً حلحلة فقرات ظهري التي أنهكها النوم المباغت على الصوفا بلا وسادة كيفما اتفق. على التلفزيون المدار دوماً، كانت تظهر صور معارك ما بشكل غير مفاجئ، ألسنا نعيش حرباً!

سكبتُ لنفسي كوباً من الماء وأشعلتُ سيجارة. مروة لم تقرع بابي هذا الصباح لتعدَ لي القهوة. خلعتُ بنطلون الجينز الذي ما أزال أرتديه منذ البارحة، ونظرتُ إلى جهاز اللابتوب الجاثم على الطاولة قربي منتظراً أن يباغت أحدنا الآخر.

تذكرتُ كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17
أوراق الرواية

«اذكريني دائماً..

.. لن أنساك»

عبارتان مكتوبتان على صخرة

المنشار في ربوة دمشق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مددتُ لساني لأتحسس جفاف برد الصباح، انتظار بطعم الزمهرير، هذه ما كنت أحسه فقط وأنا أنتظر في الخامسة صباحاً أن يلوح شيءٌ ما فوق جسر فكتوريا، ناظراً جهة الشرق. التفتُ خلفي نحو نصب الجلاء الذي كانت تغفو شعلته وسط حديقة المنشية منذ أكثر من ثلاثة أجيال. قرأتُ ما تبقى من الكتابة على الحجر، وأنا أنقّل عينيّ في الوقت ذاته بين النصب وبين رجل ينام باطمئنان فريد على أحد مقاعد الحديقة، ملتفاً ببقايا معطف عسكري رث من النوع الذي درجنا على تسميته بـ «الفيلت»، وغير مكترث بكل هذا الضجيج الذي يزرعه استيقاظ الحياة من حولنا، في المكان عينه الذي كان ينتظم فيه قادة الدولة قبل عقود على منصة لمشاهدة الاستعراضات العسكرية. «ذكرى الجلاء 1946» كانت مكتوبة بخط الثلث على الحجر الرخامي الأبيض. على بعد خطوات يساراً انتصب فندق «الفورسيزنز» برخامه الأصفر كقلعة، مسوراً بدشمات اسمنتية وممتلئاً بخليط لا يحصر من جنسيات الوفود الأجنبية. هنا في هذا الشارع كانت تمر دبابات الجيش وسياراته في الاستعراضات العسكرية لذكرى جلاء المستعمر. وهنا أيضاً أنتظر أن تأتي السيارة العسكرية المتهالكة، لتأخذني في أحضانها حسرة على زمن قديم كان فيه لهذا المكان معناه.

فركتُ وجهي لأزيل عنه بعض الصقيع، وما إن أزحت كفيّ عن عينيّ حتى رأيتها تأتي متمايلة فوق جسر فكتوريا، سيارة الزيل الروسية العتيقة من طراز سنوات الخمسينيات. لربما شاركت في يوم ما من صباها بإحدى الاستعراضات هنا على هذا الإسفلت نفسه، ولربما خاضت جميع حروبنا على مدار سبعين عاماً، ونجت منها جميعاً دون أن تتأفف، لكنها الآن تنوء بثقل شيخوختها وخزان المازوت المثبت على ظهرها، وإن كان فارغاً. وقفتْ السيارة أمامي وهي تشخر مقطوعة النفس كذبيح متعب، تسلقت كابينتها، حياني هاني وحسان، السائق والمرافق كما فهمت. كانا لطيفين بأكثر مما

أتوقع، وكنت لا أهتم برتبتي العسكرية أكثر مما يتوقعون، ولا بكلمة «سيدي» التي بادروني بها.

– صباح الخير.

– صباح الخير سيدي.

– لا تقول لي سيدي، ما بحب هي الكلمة.

ابتسم الاثنان وهما ينظران لي. لست الوحيد من نوعي، لا بد أنهما قد قابلا الكثير ممن لا ينتمون إلى هذا العالم العسكري بلونه الخاكي، الذين يتمسكون ببقايا صفاتهم المدنية رغم قيدهم العسكري غير المتوقع. بالتأكيد، على الجهة المقابلة هناك عدد أكبر ممن يلتبسون الدور الذي وجدوا فيه أنفسهم بكل زخم، بوعي منهم، أو دون وعي.

كابينة سيارة الزيل كانت فريدة من نوعها، زجاجُ نافذة لا يُغلق سيجعل الريح الصقيعية تلفح وجهي طوال الطريق. أمامي على حديد التابلو العاري مزيج من أشياء لا أعرف جدواها، تبينت منها بوتوغاز صغير وعلبتي متة وسكر، أوراق وأقلام مخلوطة بالمفكات والبراغي، عدا عن أشياء لا أعرفها. تحت قدميّ فُرِشَت أدواتُ تصليح مرمية على صاج السيارة دون علبة تجمعها. فهمتُ أن السائق والمعاون يسكنان كليهما في حي «عش الورور» الذي لم أزره يوماً، أحد أحياء حزام الفقر الدمشقي الذي لا يحمل شيئاً من طعم اسمه الرومنسي المبالغ به. هاني له طفل بعمر السنتين، طفل أشقر بابتسامة واسعة بين جدران من البلوك عارية غير مطلية تقيم فيها العائلة الصغيرة، حسبما تبينت من الصورة التي أراني إياها على جوّاله. أما حسان فهو كما قال بينما كان يلفُ سيجارة لهاني وأخرى له:

– حدا بيرتبط بالحرب! لا وبيخلف ولاد كمان! هادا هاني مخبول شو بدك فيه! خليني هيك لحالي براسي أحسن.

– يعني أنت بتلاقي وحدة ترضى فيك؟ شقفة عريف بالجيش. حط حط شريط لفيروز أحسن من ها الحكي، وصب قهوة للأستاذ.

أجابه هاني مداعباً وهو يبتسم خلف المقود، بينما كان حسان يسكب لنا قهوة من مطرة عسكرية. صدحت فيروز بدورها وهي تغني لعودة الصيف إلى دمشق بينما كنا نتجاوز ساحة الأمويين مغادرين باتجاه أوتوستراد المزة، باثةً بعض الدفء في معدن الزيل المتقشر الطلاء.

البارحة، تم تكليفي بهذه المهمة الاستثنائية في هذا الزمن الاستثنائي. تم الأمر على عجل ودون أي فسحة للتداول أو النقاش كي لا أستطيع أو أحاول التملص بطريقة ما. عبقريٌ ما في مكتب ما وجد أنه من المفيد تكليف شلة

الفنانين الذين لا نفع منهم، كما كان يطلق علينا نحن الذين نؤدي خدمتنا العسكرية في المسرح العسكري دون أن نحمل السلاح، بمهمة مصيرية، مرافقة روتينية لصهريج مازوت حتى محطة الجيش للوقود غرب العاصمة، ومن ثم العودة به ممتلئاً. عملية تافهة ليس علي أن أقوم خلالها بشيء سوى الإفلات من مباغتة رصاصات قناصة، ومن كمائن خطف محتملة، وبالطبع ضمان أن لا تتم سرقة المازوت. ولكن كيف؟ تساءلت وأنا أتمعن في ثقب صغير في الزجاج أمامي ونحن نغادر المزة بينما كنت أرتجُّ مخلفاً دمشق خلفي. ضحك هاني مرتجّاً في مقعده هو الآخر مخمناً تساؤلاتي وهو يرى عينيّ تنفذان من الثقب:

– لا تهتم، هي قديمة، من قبل ما صير سائق على هي السيارة.

لا أعرف إن كانت هذا الثقب لرصاصة اصطادت أحداً كان يجلس مكاني يوماً. لم أرد طرح السؤال مقنعاً نفسي بأنهم يجهلون ذلك كما أجهل. يجهلون من كان هنا وكيف أصابته الرصاصة، وهل بقي حياً أم تحول لمجرد رقم آخر في عداد ضحايا الحرب الذي لا يتوقف. ولكن، هل الجهل بالقتيل يكفي لجعل القتل أقل قسوة؟ ربما، فالجهل يجعلنا في الموت أرقاماً مجردة لا أكثر، أرقاماً مجردة من الوجوه والأسماء والأحبة، وحتى من ضرورة الحزن علينا.

تجاوزنا دمشق لنمضي على طريق بيروت. راودتني أمنية صغيرة لا يمكن أن تتحقق إلا بأمر إلهي أو عسكري في هذا الزمن. مددت رأسي من النافذة التي لا تُغلق لأعبَّ بعض الهواء متلفتاً إلى جهات لا أعرفها. هل من الممكن أن أصادف لارا؟ أي إله يستطيع أن يثبت لي نفسه الآن بجعل السيارة التي تسافر فيها تمر قرب صهريجنا الهادر. هذا من مستحيلات الحرب! ومع ذلك تعلقت بهذا الأمل التافه والمحتمل في الوقت نفسه ضمن صيرورة اللامتوقع التي نعيشها يومياً. فلارا تسافر اليوم مع عائلتها إلى بيروت، ومن ثم إلى أوروبا، ولا طريق لهم سوى هذا الطريق، وهم من هنا سيعبرون حتماً. لو كنت أستطيع أن أكون عسكرياً أكثر مما أستطيع، لنصبت حاجزاً يوقف جميع السيارات المغادرة، فآمرها بالرجوع لتعيد ركابها الراحلين إلى منازلهم، أو فليفعلوا ما يريدون ولكن ليبقوا لي لارا، لاراي. لارا قررت السفر أيضاً أيها المعتوه! وأنت الذي رفضت منذ البداية أن تحمل سلاحاً، تفكر الآن بنصب حاجز حب عسكري! ما هذه الهلوسات الهبلاء.

– وين أستاذ؟ شردت شايفك!

أخرجني حسان من نفق لارا بجملته المرفقة بسيجارة ملفوفة بعناية وملصقة بلعابه. شكرته، وقدمت له إحدى سجائري «المانشستر» بالمقابل. سَعل كلانا بضراوة بعد أول نفس، رئاتنا نحن الاثنين ليست معتادةً على هذا التبادل.

– معك حق، حدا بيرتبط بالحرب!

ضحك حسان مجاملاً دون أن يفهم بالضبط ما كنت أعنيه بتكرار جملته، ودون رغبة بالاستفهام. من بعيد لاحت بلدة المعضمية على يسار الطريق. كنت في الجهة اليمنى البعيدة من كابينة السيارة، وهو ما جعلني الأقل امكانية للصيد في معادلة القناص لو كان قد استيقظ، مقارنة بهاني وحسان على التوالي. هذا منحني بعض الأمان، قبل أن أتذكر أنه في رحلة العودة سيكون الأمر معكوساً، وسأكون من جهة القناص وفي مرماه. القناص النائم الذي سيكون قد استفاق بالتأكيد في تلك الساعة، ليشرب قهوته الصباحية وهو يصطاد بعض الرؤوس. نظر هاني إلى مبتسماً وقد أحس بما يجول في خاطري، ثم مال برأسه ناظراً من نافذته نحو المعضمية:

– الاتكال على الله.

هززتُ رأسي متضامناً، مع أني كنت أفضل في سري أن أتكل على إله آخر غير الذي اتكلت عليه سوزان، وخيبها، تلك الممثلة التي قتلتها الحرب على حين غرة، وخلفت ابتسامة لا تنسى.

في إحداثيات مشابهة قُتل فادي برصاصة قناص في الرأس وهو يدخن سيجارته في المقعد الأمامي. لم يكن الأول ولم يكن الأخير. لكن هذا المخرج السينمائي الذي كان قد أنهى للتو دراسته في الخارج، قبل أن يلتقطه الجيش فور عودته ليزيل بتولته المدنية، كان الوحيد من أصدقائي الذي شاهدتُ لحظة موته في فيديو قصير ما يزال موجوداً على اليوتيوب للعامة. مال برأسه بهدوء كما لو أنه غفى. كان فادي متفائلاً، وفي عينيه تلوح مشاريع أفلام عديدة، كان أمل عائلته الفقيرة، وحلم حبيبة لم يفصح لنا يوماً عن اسمها تنتظره في قريته البعيدة. كان فادي صديقي، وكان يحمل وردة حمراء.

في محطة الوقود تبينت ثقوباً أخرى في المعدن الروسي لواجهة سيارة الزيل، وأنا أتكأ عليها رافعاً رأسي للشمس علها تزيل بعض البرودة من جسدي، بينما كانت هي تهدر مطفئةً محركها غير الآبه بتلقي كل هذا الرصاص. طابور طويل من الصهاريج الأخرى اصطف في الساحة الواسعة، بعضها بات هنا كما فهمت. سألتُ هاني عن الوقت الذي نحتاجه لإنجاز هذه المهمة، فقال لي أن الأمر يرتبط بمزاج العقيد مدير المحطة، من خمس ساعات إلى عشر ربما، وأردف بأنه قد أحضر له ماعوناً من الورق على أمل أن يُقدّم دورناً قليلاً على غيرنا، مضيفاً أن عليّ الدخول إليه لأعرفه بنفسي. لم أرغب، ولكني كنت مرغماً. عندما دخلت، تعمدت الوقوف قرب مدفأة المازوت العتيقة التي تتوسط مكتبه لأحصل على بعض الدفء. هنا الكثير من

الوقود، ولذلك من الطبيعي أنها كانت تزمجر وهي تلتهم خط المازوت الممزوج بالماء وهو ينزل إلى جوفها كمصل سيروم معلق.

بينما كنت أقدم له ماعون الورق، وفي لحظة كشفٍ، خطر لي إلهام غير متوقع. تفحصت جيوب معطفي على عجل، ووجدتها، خمس بطاقات لحضور مسرحية لأيمن زيدان، كنت أحتفظ بها لبعض الأصدقاء، وأيضاً لي ولفتاتي المهاجرة.

- شوهي؟!

- هي بطاقات لحضور مسرحية لأيمن زيدان.

- أيمن زيدان، أي والله أنا بيعجبني أيمن زيدان. لشو هدول؟

من حظي أن هذا العرض المسرحي كان مليئاً بنجوم التلفزيون لا المسرح، وأنه كان كوميدياً، وأن العقيد لسبب ما وجدها فرصة لنيل رضا زوجته باصطحابها وأولادهما إلى المسرح ربما للمرة الأولى في حياتهم. نفع ذلك بأن امتلأ صهريجنا بوقت أسرع بكثير من المتوقع، بحيث كان بعد ساعاتٍ قليلةٍ ينهب الأرض كفرس أصيل بشوق العودة سريعاً إلى دمشق.

- ما في منك يا سيدي. يا ريتك تبقى معنا على طول.

قال هاني وهو يطلق زمور الزيل سعيداً كما لو أنه في موكب عرس، بينما كنت أنا أستنكر هذا الدعاء كحكمٍ بالسجن المؤبد، قبل أن يصحح حسان:

- يا زلمة ادعي له بالتسريح. الله يفك أسرك يا سيدي.

الدعاء بفك الأسرِ والانتهاء من الخدمة العسكرية الإلزامية تعبير درج في السنوات الأخيرة. كنا جميعاً في أسرٍ لا يعتقنا ما دمنا نعيش هنا. قلّبتُ في ذهني جدوى فكرة اعطاء العقيد بطاقات لعرضي المسرحي الذي سيفتتح بعد أيام قليلة، لكني خَلصتُ إلى تجنب ذلك، فأي ضابط لن يستطيع أن يفهم كيفية إخراجك لعرض مسرحي في الوقت الذي تؤدي فيه خدمتك الإلزامية. سيكون من الجيد أيضاً «أن لا أفتح باباً على نفسي»، كما يقول التعبير الدمشقي، مبتعداً بمسرحيتي عن تأويلاتهم الوطنية.

عَلقنا في الزحام أمام كراج بيروت قرب منطقة السومرية. لكن سيارة الزيل القديمة تابعت التقدم ببطء شاقة طريقها دون اكتراث، بينما كانت بقية السيارات تحاول الابتعاد عنها متجنبة الاحتكاك بمعدنها الصدئ، ميزة جعلتها تسير بشكل أسرع قليلاً. على الجانب الآخر داخل الكراج اصطفت السيارات متأهبة للمغادرة إلى البلد الوحيد الذي ما تزال حدوده مفتوحة مع سوريا بشكل ما. نقّلتُ نظري بين المسافرين على البعد، عَلني أقعُ على خصلات

شعر أسود متموجة، على شفتين كرزيتين، على عينين سوداوين واسعتين، على النمش الخفيف الذي يعلو أنفها، على شيء منها، لكنها لم تكن هنا، أو كانتْ ولكن ضائعة في الزحام دون أن أستطيع أن أجدها. هالتني هذه الفكرة، ففتحت الباب وقفزت لأجري وسط نباح زمامير السيارات علي غير آبهة بحبيبتي الضائعة.

عندما كنتُ خلف خالد ممتطياً موتوسيكله الذي ينهب الأرض نحو حي المزة في ذاك الصباح بعد المناوبة الطارئة، لم يكن هنالك سوى فكرة واحدة تسيطر علي، أن ألحق بلارا لأقبلها وأنا أرى نفسي في عينيها للمرة الأخيرة قبل سفرها ومغادرتها حياتي التي لم تسمح لي بلحظة وداع معها. لم لا يكون بإمكاني أن أحتضنها ببساطة كما في أي فيلم مصري قديم! محتفظاً ببعض دفء جسدها لي، لمرة واحدة، وربما للأبد. بعد أن ترَكتُ خالد يمضي على فرسه المعدنية ليصطاد الخبز بخبرته من فرن المزة، وقفت أمام البوابة الحديدية المغلقة للبناء الذي تقطنه محتاراً متعباً، شبه مهزوم لا يسلم بالهزيمة، وأنا لا أدري ما أفعل. اتصلتُ بها فلم تجبْ، لربما كانت نائمة. رننت جرس الإنترفون، أتاني صوت والدتها، فلم أجب. لم يكن بي طاقة للحديث، كنت أريد من يحتضنني فقط.

جلستُ على الدرج أمام البناء وفعلتُ ما يفعله أي شخص في مثل هذا الوضع، أشعلتُ سيجارة فقط واستسلمتُ دون مقاومة لأفكاري المرهِقة. لن تراها بعد اليوم إلا على شاشة الواتس آب، قبل أن يتباطأ تبادل الرسائل ليقضي البعد على ما كان بينكما. بعد دقائق كان علي أن أنهض بعد أن وصل ماء شطف الدرج إلى قربي. كان البواب يشطف الدرج بعملية صباحية روتينية، قبل أن يفتح البوابة ويستهجن بجلافة وجود رجل يجلس أمامها منتهكاً حراسته. تجاهلته وتقدمت داخلاً، بينما كان حذائي الأسود يترك بقعاً طينية على البلاط المبلل. صعدت الطوابق الأربعة وقرعت بابها دون أن أفكر بما بعد ذلك. فتح والدها الباب متفاجئاً بي، بسبب تقطيبتي العسكرية، فهو لم يكن يعرفني.

– الآنسة لارا موجودة؟

– خير؟

– خير. استبيان أمني بسبب السفر، شغلة روتينية. أنتم مسافرين، مو هيك؟

وجهي بقي جافاً بارداً غير قادر على الابتسام بسبب انهاكي الجسدي والفكري والعاطفي، ذلك منحني بعض الجدية التي كان يستلزمها الموقف.

بدهشة خرساء، فغرت لارا شفتيها المحمرتين بروج خفيف وُضِعَ على عجلٍ تأهباً لهذا الزائر الطارئ عندما رأتني. وقبل أن تنبسَّ بكلمة طلبتُ من والديها تركنا لوحدنا، وأنا أغلق الباب بصرامة وجهي المتعب، مشدداً على أن لا يدخل أحد حتى أنتهي. ما إن بقينا وحدنا حتى أخذتها في ذراعي، وهي تردد كممسوسة كلمات لم يعد لها معنى لدي.

– مجنون.. مجنون..

كانت تلك آخر مرة أراها فيها، آخر قبلة، آخر ضمة، آخر مرة تنفستُ الأوكسجين الخارج من صدرها، آخر مرة كان لي فيها لارا. واليوم أنا أعزل كجندي كسيح يتسول حبيبة على أرصفة المدينة.

ركضتُ أبحث عن عينيها لأرى صورتي الحقيقية فيهما للمرة الأخيرة. مررت على السيارات واحدة بعد أخرى وأنا أنظر داخلها. وجوه متنوعة، نضرة وجافة، عيون مشبعة بالضحكات وبالدموع، شفاه خرساء وأخرى لا تتوقف عن الحديث. من هنا تحمل معك وأنت تغادر هذه البلاد فرح النجاة، وأسى الفراق. من هنا لا تعود موجوداً بعد اليوم، ولاراي لم تعد موجودة، كما لو أنها لم توجد أبداً.

في ذلك اليوم عُدتُ وحيداً مفرداً إلى دمشق التي بدت لي أكثر قسوة من أي يوم مضى، كأم جافية تطبق على دماغي، بدل أن تحيطني بذراعيها. وفي المساء جلستُ وحيداً بين مئتين وستة عشر مقعداً فارغاً في مسرح القباني أشاهد بروفات مسرحيتي صامتاً على ضوء الشموع، دون أي إحساس بأي جدوى في عالم وصل انهياره إلى قلبي، بينما كانت السماء في الخارج تمطر قذائف هاون صارخة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

18

هوامش

تراودني الحكاية. تبارزني بالحدة ذاتها التي أكتبها بها، فلا أعودُ أعرف من يكتب منا الآخر. أأنا فيها؟ أم هي فيَّ؟ هل هي روايتي؟ أم أني شخصيتها؟ أتمردُ عليها فتتمرد علي. أرسمُ لها خطاً مثل طريق يبتعد ممتداً، فتحيطني بالدوائر. أبحثُ خارجاً، فتعيدني داخلاً إلى نفسي. أتملصُ فتقيدني. أدورُ في نفسي كحلاجٍ، فيدور كل شيء معي، لتفنى «الأنا الفردية» في «الأنا الكلية»، أنا الجمع بصيغة المفرد، بداخلي أرواح من عاشوا، «كلُّ الذينَ أحبِّهُـمْ نَهَبُـوا رُقَادِيَ وَاسـتَرَاحوا». كم من الوقت أستطيعُ أن أحتملها داخلي؟ هل لذلك أكتبها؟ لأخرجها مني؟ وأخرج منها؟ ألدُها فتلدني. هل أرتاح، هل أنسى؟ وهل سأعيشُ مثقلاً بكل مَنْ وما يسكن ذاكرتي؟ أم هل أعيشُ بلا ذاكرة؟ مالي وكل هذه الاسئلة؟ أه لو لم تكن لي هاتان العينان المبصرتان، آه لو كنت نجاراً، حداداً، عتالاً، أي شخص آخرَ يعيش يومه بروتينية لا تترك له الوقت للتمعن والتفكير. آه لو لكنت لا أعرف الكتابة. آه لو لم تكونوا تسكنون خيالي وتفكيري؟ ألن تخرجوا مني يوماً؟ ألن تعودوا للحياة؟ وهل أستطيع أن أعيدكم أنا؟ أنا الراوي والمروي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

19

لم ينفذ «أبو علي» وعيده بإطلاق مئتي قذيفة هاون على دمشق احتفالاً بانتخابات الأعضاء الجدد لمجلس الشعب، الذي كان يقع على مسافة مئة متر من شقتي أو أكثر بقليل، بعد الوساطة الروسية والدستور الجديد. فقد أخرستْ صواريخ «الفيل» المنطلقة من جبل قاسيون المطل على دمشق مدافع الهاون في حي جوبر الذي يقع في الشرق على بعد كيلومترين بعد القذيفة الثانية والستين. لكنه اليوم على ما يبدو قرر المحاولة مجدداً. نهضتُ من سريري بعد فشلي الذريع بجميعِ محاولات النوم التي قمت بها. كنتُ عادةً ما أذهب للنوم بعد الساعة الرابعة صباحاً، فالرابعة صباحاً هي ساعةُ قصف ليلي لا يهدأ، وإذا نمتُ قبل ذلك فعادة ما أصحو في تلك الساعة على وقع القذائف. وهي عادة ستستمر معي لسنوات طويلة بعد ذلك كنوع من المتلازمة المرضية، حتى بعد ابتعاد المدافع.

قبل ساعات كنت قد أرسلتُ الفصل الأخير فور انتهائي من كتابته إلى أكثر شخص أثق به، وأثق أيضاً بأنه لن يخذلني في رفع روحي المعنوية ولو تواطؤاً. كنتُ أحتاج ذلك بشدة بعد أن أصبح كل شيء يختلط في ذهني، لأفقد ببطء ثقتي بكل ما يحيط بي، وبحقيقة كل لحظة أحياها، وثقتي بكينونتي وسط هذا كله. كما لو أني في حلم لا ينتهي بانتظار أن يصرخ بي أحد، أن يصفعني، أو يقبلني ليوقظني. لم أرسل لها الفصول السابقة، كنت أريد فقط أن أحمي بها ما كتبت لتكتسب كلماتي بعض الثقة قبل وصول مِشرط حنان. على الماسنجر كان هنالك نقطة خضراء قرب اسمها. كتبت لها:

– فايقة لهلأ؟

لم يتأخر رد نهلة وكأنها تنتظرني منذ دهر.

– كنت عم اقرأ الفصل اللي بعتلي إياه.

حاولتُ مدارة فضولي الطفولي برغبةٍ في ما يقطرُ سكراً. لم تخيبْ ظني، كلماتها التي حملها صوتها العميق أيقظتني على نفسي من جديد بقوة فنجانٍ قهوة مركزة. تحدثنا عبر برنامج «السكايب» على غير العادة. فأنا عموماً ما أفضل المحادثة الصوتية فقط تاركاً لخيالي نسج البقية، لكن أفراد عائلتها هذه المرة كانوا نائمين، وكانت تلك فرصة طيبة لنجدد استذكار تفاصيل وجهينا. ليس مهماً إن كان ما قالته مجاملة أو لا، ما كان مهماً هو أن حروفُ لفظها قد تسربت إلى روحي فأشبعتها بالحياة، وبالطاقة على الاستمرار والكتابة. صَفرتْ قذيفة هاون عابرة فوقي قبل أن تنفجر في مكان قريب. رفعتُ رأسي مستبيناً ومترقباً. سألتني نهلة عن ما أصاب وجهي وعينيّ؟ سَقطتْ

الثانية على سطح الجامع المجاور غير المضاء بنوره الإلهي في تلك اللحظة، لتحطم شظاياها زجاج نافذتي والخزان المثبت على السطح، ولينهمر مائه شلالاً أمام النافذة. لم أكنْ في المدى المجدي للشظايا فبقيت حياً على ما يبدو، لكن لم يكن هنالك ما يضمن بقائي حياً من قذائف تالية، فقفزت وأنا ألتقط بفعل غريزي دون تفكير علبة سجائري نازلاً درج البناء بقفزات خبيرة. كانت بداية الدرج في الطابق الأرضي المكان الوحيد الآمن من القذائف في البناء، فشقتي الواقعة في الطابق الأخير مسقوفة بألواح توتياء لا تقي حتى من الحر.

في الأسفل وقفت أدخن بقدمين حافيتين وصدر عار، بينما كانت موظفات الدائرة الحكومية المحجبات يهرولن نازلات من الطابق الأول وهن يزعقن بأصوات مشابهة لأصوات القذائف، ليزعقن مجدداً متفاجئات بصدري العاري وشورتي الأخضر المزدان بعبارة «No Land For Men».

هدأ كل هذا الضجيج بعد نصف ساعة قُتلت فيها بائعة في متجر مجاور، ومجدداً لم يكمل «خبية» تهديده بإمطار العاصمة بمئتي قذيفة. كانت عينا نهلة المتسائلتان تنتظراني في مكمني غير الحصين على شاشة جهاز الكومبيوتر. شرحتُ لها الخطوط العريضة لسريالية الحرب التي نعيش دون أن تستطيع استيعاب ذلك. نحن الذين نحيا «هنا-الآن» لا نستوعب! فكيف تستطيع هي! قَنعتْ راضية عن كوني بخير، قبل أن تستسلمَ للنوم في عاصمتها البعيدة، مُسلمةً بعباراتي بأنه «ليس في اليد حيلة»، وأنه «ليس في الإمكان أفضل مما كان»، وأن «لكل امرئ من دهره ما تعودا»، وكل التعابير التي حفظناها عن ظهر قلب لنداوم على تعزية أنفسنا وغيرنا بها منذ سنوات.

وصلتني رسالة على الموبايل من مروة:

– «أنت بخير؟»

– «أنا أشرب القهوة، بدونك»

ما أجمل التكثيف معكِ. مروة التي أجابتني بثقة حين سألتها كيف تتوقع أن تنتهي علاقتنا؟ إذ لا بد أن تنتهي يوماً ما كما ينتهي كل شيء، كانت ترى في اللوحة أقل مما أرى، وتدرك بعفوية أكثر مما أدرك:

– علاقتنا مارح تنتهي، إلا يموت أو يسافر واحد منا. الموت والسفر بيشبهوا بعض.

كلاهما رحيل واختفاء، خروج ومغادرة. أخبرتني دون تفاصيل أنها قررت وزوجها العودة للعيش في القرية مع والديها العجوزين، لترافق آخر سنوات عمرهما، وفي الوقت نفسه لتبتعد عن كل هذا الضجيج الذي يصم عينيها

وحياتها. يبدو أن قوقعة اللامبالاة التي تحميها قد بدأت تضعف، وبدأ الألم الجماعي المنتشر كوباء يتسلل إلى قلبها، ولذا عليها أن تنجو بما بقي لها قبل أن تتحطم. قلت مستنكراً:

– ليش عندكم بالضيعة ما في حرب؟!

– فيه.. بس في حياة أكتر.

طعم عيش الحرب يختلف من مكان لآخر، هذه حقيقة لا جدال فيها. ليس بمعنى البعد والقرب، ولكن بمعنى الكيفية والنكهة. ونكهة الحرب في دمشق حريفة لاذعة، كما لو أنها متبّلة بتوابل المطبخ الصيني التي تركز النكهة، وتضاعف أثرها في الدماغ، إلى أن تصاب بالصداع.

– بس لا تخاف.. رح إجي ودعك.

طمأنتني عبارتها وأفزعتني، سأراها وأفقدها. مروة التي لا تهتز نضارتها لمدافع الحرب، ولا يدها وهي تضع «الماسكرا» على رمشيها وسط قذائف الهاون، ولا يتسلل سواد دخان الانفجارات إلى ألوان عينيها الضاحكتين. مروة التي تستطيع أن تتناسى أسماء من فقدت بينما تنتقي الصبغة الحمراء النحاسية لشعرها. التي تستطيع بكبسة زر تغيير القناة التلفزيونية التي تبث معارك الفرقة 17 الضارية مع داعش في الرقة وحصار مطار منغ العسكري، لتضع على مسلسل تركي مدبلج، غير آبهة بكافة المحللين السياسيين وهم يتعاركون راجمين بالغيب مسار الحرب، ها قد ملّتْ وتَعِبتْ، وستغادر كما غادر غيرها. سأطبق على شفتيها بقبلة حياة طويلاً لاحقاً لأخرسها، هارباً من الإجابة على سؤالها الملح عما إذا كانت موجودة في روايتي، أو ستكون؟ فأنا حقاً لا أعرف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

20

أنهيتُ البروفة في ذلك اليوم مبكراً، فحنان تجلس على أحد المقاعد الخلفية في الصالة منذ ما يقارب الساعة. كانت قد أتتْ دون موعد مخمنة أني سأكون هنا. مشينا خارجين من مسرح القباني نحو دكان أبو شاكر للعصير. هناك في الشارع الجانبي، وعلى مقعدين بلاستيكيين دون مسند على قارعة الطريق، شربنا عصير قصب السكر بالزنجبيل ونحن نتحدث في كل شيء سوى الرواية. لم تناقشني في أي تفصيل. توقعتُ أنها رَضيتْ بكوني أكملتُ الحكاية مع لارا، دون أن أتأكد تماماً إن كانت النهاية التي وضعتُ لحكاية لارا تليقُ بما تريد. شلة من المراهقين كانوا يشربون العرقسوس على بعد أمتار منا وهم يسترقون النظر بخجل إنما بإصرار إلى ربلتي حنان المنفلتتين من تنورتها السوداء كشجرتي صندل. انتبهتُ إلى الخلخال الذهبي النائم على كاحلها بخرزاته المنمنمة الكحلية. لم أعرفْ إن كانت ترتديه للمرة الأولى، أو أني أنا من يراه للمرة الأولى. كيف لم ألتقط هذا التفصيل سابقاً!

بَدَلَ الرواية تحدثنا عن المسرحية. ذلك ساعدني في الابتعاد قليلاً عن تشنجي الروائي، وعن أي حوار حاد محتمل بيننا. كان ما يزال هنالك عدة أسابيع قبل الوصول لافتتاح العروض، ولذلك تركتها تتحدث كما تريد، مكتفياً بالتشبع من عينيها وكاحلها ذي الخلخال النائم. لم تكن ترغب بالذهاب إلى مكان معين، لا في الحوار ولا في الجغرافيا، فاكتفينا بالمسير هائمين بين شوارع العابد والحمراء والباكستان المتعامدة ونحن ندور في شبه دائرة واسعة حول بيتي دون أن نقترب منه. كان لا بد أن يقودنا الحديث في النهاية إلى الرواية. بادَرتْ بالقول إن هنالك الكثير من الشخصيات الهامشية تظهر وتختفي دون أن يبقى منها سوى أسماؤها، فهل من المعقول أن يكون مرورها على الهامش فقط؟ أم أني سأعود إليها في الفصول المقبلة؟ لم أكن أعرف ما وراء سؤال كهذا، اعتقدتُ أنه فقط نوع من اختبار ألغام تخوم روايتي. غواية شخصية بالدخول من الهامش للمتن.

– في حياتنا بيمر الكثير من الأشخاص بشكل هامشي، تاركين ذكرى صغيرة فقط، أو مجرد اسم، ببعض الأحيان فقط لأنهم وجدوا في لحظة معينة، فارتبطت وجوههم وأسماؤهم بهذه اللحظة اللي تحولت لذكرى. الحياة مليئة بالكومبارس، متل ما هي مليئة بالأبطال أصحاب الأدوار الرئيسية. وكل حياة فيها من الاثنين، الكومبارس والأبطال على حسب هي حياة مَن. ونحن أيضاً، متل ما نحن أبطال في حياتنا، لابد أننا كومبارس في حياة آخرين، والذين هم بدورهم كومبارس في حكاياتنا، وأبطالٌ لحكاياتهم، التي نحن بها مجرد كومبارس على الهامش.

ابتسمتْ. ربما كانت تتوقع جواباً أقلّ جديةٍ وأخفَّ فلسفة. لكن هذا ما جاد به خاطري، واستفزها لتسترسل بعد صمت قصير محدثةً إياي عن حياتها. تلك الحياة التي لم أكن فيها سوى كومبارس هامشي، بينما كانت لها هي البطولة. لكن أي بطولة لك يا حنان؟ وأنت لا حكاية لك! لستِ هاربة من منطقة مدمرة، لم تخسري منزلك وعملك، لم يمت أحباؤك ولم تُصبك الحرب بسُعار الحياة، لم يُغادرك الفرح محزوماً في حقائب من رحلوا، أو جيوب من سُجنوا، أو صُور من خطفوا. امرأة متوازنة في ميزان بلاد مختل، لك حكاية لا تشبهني فكيف يمكن يا حنان أن تكوني في حكايتي؟ وكيف لك أن تكوني شريكة رواية الهلوسات المحمومة لجيل الحرب؟ وأنت لم تمر عليك الحرب!

أردت أن أقول ذلك كله لها وأصدقه، وأن تصدقه هي أيضاً، مُسَلِّمِينَ بأن اعتقادنا هو الحقيقة الوحيدة، وكل ما غير ذاك وهمٌ باطل. لكن شفتيّ اكتفيتا بهذه الجملة:

– لا تكوني بطلة، فالأبطال يسقطون في نهايات تراجيدية.

ابتسمتْ شفتاها مجدداً، لكن بمسحة حزن هذه المرة. تخوفتُ من أن يكون ذلك الحزن حقيقياً فأبعدتُ عينيَّ عنها. كان إيماني المطلقُ بنجاتها ينهار كقصر رملي داهمته الأمواج. ألم يبق هنالك نساء بلا أحزان في هذه البلاد! مضتْ بحديثها إلى ما هو أعمق، ممزقةً غرزات الخيط الذي يغلق جراحها. أردتُ مراراً أن أوقف استرسالها في السرد، أن أصمَّ أذنيّ وأغلقَ عينيّ عن تفاصيل الحياة الفجيعة كما لو أنها لم تحدث، كما لو أن التجاهل والإنكار يكفي لتغيير واقع ما حدث. أن أوقفها كما لو أني أستطيع بذلك تحييد الآلام عن قلبها، كما لو أنني أستطيع تغيير ماضٍ لا أعرف مستقبله، لأبعِد خط حكايتها مانعاً إياه من التشابك مع واقعنا الشرس، فلا تترك الحرب ندوبها العميقة في روحها، وأحوّل فجيعتها لضحكات تتساقط عليّ بدل الدموع التي أراها في عينيها. لا لم تنج حنان. كانت مثلي ومثل لارا ومروة ورند وعسكري إشارة المرور ورشيد وخليل وموسى وعامر وهلا ومحمد وسالم وهاني وحسان وسارة ورولان وأحمد وعمر وخالد وفادي وسوزان وعلي وأبو داني وفريد وباسم وأبو محمد، وكل ضحية أخرى مشت عليها جنازير الحرب لتدعس بفولاذها الصلب خلايانا الحية دون اكتراث، واسمة أجسادنا بوسم الحرب. نحن جميعاً بأدوارنا البطولية والهامشية لسنا سوى حطب حرب يابس يحترق، وحنان كما البقية، لها دورها الخاص بها في هذه المأساة الجماعية كقدر. حنان التي تراوغ للانتقال من الهامش إلى المتن. توقفي، لا تكملي خطك يا حنان، لا تقعي في غواية النص في حكايتي، فأنا المعبأ بالحكايا، لم أكتسب مناعة الحزن بعد.

كانت حنان بجناحيها المكسورين جرعة عالية مباغتة كافية لتمزيق قلبي. عندما عدت وحيداً إلى منزلي في تلك الليلة، دونت جميع الأسماء في روايتي على ورقة بيضاء وألصقتها على الجدار. إنهم جميعاً أبطالي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

21

ثلاث ساعات كانت تفصلني عن موعد أمسية «أضواء المدينة»، أحد الملتقيات الأدبية التي أفرزتها الحرب ليكون من عوارضها الإيجابية القليلة. ثلاث ساعات كافية لكسل مستطيل، لكن بعد نصف ساعة من الملل فقط، وجدتُ أنه من الأفضل لي أخرج. الليلة السابقة أمضيتها بالحلم الذي يداهمني للمرة الألف. كتلة اللهب التي علت قاسيون إثر القنبلة التي ألقاها الطيران الإسرائيلي، وجعلت بيتي يهتز لأظن بداية أنها هزة أرضية، أو أن كأس العرق الذي أشربه رديء النوعية، قبل أن أنتبه للضوء الأحمر القوي عبر نافذتي، لأتجمد أمام مشهد الكتلة النارية التي تجاوزت قاسيون في حجمه، شيء لم أتوقع أن أراه يوماً سوى في أفلام السينما. قفزت يوم ذاك إلى ذهني تعليمات الحماية من الانفجارات الذرية التي درستها وأنا الصف السابع في المدرسة، فكدت أقفز بعيداً لأحتمي. لكني وقفت فقط أتمعن بهذه النار الملتفة في السماء على نفسها، فلمثل هذا الأمر غوايته إذ لا تراه سوى مرة واحدة في العمر، حتى لو متت بعدها. سأتذكر ذلك كثيراً وأنا أشاهد اللحظات الأخيرة المصورة بموبايلات قتلى انفجار مرفأ بيروت بعد أعوام. رحلوا هم بين الدمار وبقيت أصواتهم على خلفية فيديوهات الانفجار الكارثي التي صوروها. ما هو خارج كادر الصورة لا يقل عنها أهمية. في الكادر انفجار مخيف، وخارج الكادر كل الضحايا الذين لا نرى وجوههم، ولا نعرف اسمائهم.

ارتديت بنطلوناً من المخمل البني على غير العادة، منتقياً معطفاً أسود لم أرتده منذ زمن طويل، وبينما كنت أدس محفظتي في جيب المعطف وأنا أعاين منظري في المرآة، لمست أصابعي قصاصة ورق صغيرة مطوية داخل الجيب. أخرجتها وشككتها خلف الورقة الملصقة على الحائط، حيث دونت أسماء شخصيات روايتي، لأقرأها بعد الانتهاء من ربط حذائي. رن جهاز الموبايل، كان عُمر يقدم عرضاً مغرياً بتناول الفلافل في مكان ما على الطريق قبل أن نمضي سوياً لبار نينار حيث يُقام الملتقى، فالشعر والفودكا يحتاجان معدة مليئة كما قال. اتفقنا على الالتقاء بمحلّة باب سريجة، وبعد انتهاء المحادثة المقتضبة التقطتُ شالي التركواز ولففتُ رقبتي به لتكتمل هيئتي الشعرية، ولأمضي نازلاً الدرج الخشبي وهو يزقزق تحت قدمي، عازماً على الذهاب إلى نهاية دمشق القديمة سيراً على الأقدام، كي أتجنب زحام حواجز شارع بغداد العديدة، وكي أطمأن على أن مدينتي ما تزال هنا حية.

لسعني بمجرد خروجي من الباب الحديدي للبناء بردٌ خفيف مناسب لنزهة رومنسية مع صديقة في أحياء دمشق، لأحكي لها ما لا تعرفه عنها، عن مكتشفاتي الصغيرة في زمن كان ضجري يخرجني فيه من سُباتي لأستكشف تفاصيل مدينة كانت جديدة علي، فأرى بعين الدهشة ما لا يراه ساكنوها بحكم

العادة. كانت تلك فكرة رومانسية فائضة عن الواقع تليق بكتّاب الثمانينات أكثر مما تليق بي، لا بد أني قرأت ما يشبه ذلك لأكثر من قلم.

من شارع الصالحية مضيتُ وأنا ألتف حول تمثال يوسف العظمة داخلاً حي ساروجة، لأعبر بين الكراسي الخشبية المتناثرة أمام مقاهيها حيث توزع شباب جيل تلا جيلي، بإيقاعهم المغاير كانوا مختلفين بجمال مختلف، شباب وصبايا في بداية العشرينيات من العمر، يحيون دوماً في المكان ذاته الذي شهد نشاطاً كثيفاً لأصدقاء آخرين، لم يبق منهم أحد هنا من بعد. لم أكن أتوقع أن أرى أحداً من أصدقائي في مثل هذا الوقت، ومع ذلك تمنيتُ في خيبة لا ترتجي أملاً. تقدمتُ متجاوزاً «البحصة» لأعبرَ من تحتِ جسر فكتوريا إلى محطة الحجاز بطرازها العثماني المخلوط بتأثيرات عربية وأوربية، توقفتُ قليلاً أمام النصب الذي يُخلد ذكرى الطبيب مسلم البارودي، والذي قُتل وهو يُنقذ جرحى القصف الفرنسي على دمشق في هذا المكان برصاصة غادرة. هنا كانت السماء تمطر قذائف قبل ما يقارب السبعين عاماً كما لو أنه البارحة. ليس هنالك من جديد على هذه المدينة التي اختبرت كل شيء. تقدمتُ على طول شارع النصر الذي كان يحمل سابقاً اسم الوالي التركي جمال باشا بلقبه الرهيب «السفاح»، متجاوزاً قصر العدل بطرازه المزاوج ما بين العمارة الإسلامية والفرنسية، والذي تعرض لأكثر من تفجير ومحاولة تفجير، أحدها كان عن طريق طفلة مجهزة بحزام ناسف. أسرعت خطواتي دون وعي كما لو أنها تهربُ بي من أي إحداثيات خاطئة قد تؤدي لكارثة، لألتف أمام مدخل سوق الحميدية نحو اليمين عابراً أمام مداخل أسواق الحريقة ومدحت باشا الذي يتزين مدخله بمئذنة خضراء فريدة لجامع السنانية، وهي المئذنة الملونة الوحيدة في دمشق.

– استيقظي..

سمعت صوتاً ينادي بين زحام الناس غير الآبهين بحرب يعيشونها. التفت لأرى رجلاً بملابس رثة قد اعتلى عربة لبيع الترمس وهو يصيح بأعلى صوته راكلاً بقدميه صاحب العربة الذي يحاول إنزاله دون جدوى:

– أعطني فمك أيتها المتبرجة التي تلبس خوذة..

كان ذلك الشاعر التائه على حواف العقل، أو شبيه له، صاحب نظرية الثقب. كنت قد ظننته قد مات منذ زمن طويل، لكنه يبدو أمامي هنا الآن حياً ينشد قصيدة الماغوط الموسومة باسم مرعب «القتل»، ما بقيت دمشق ترتدي خوذتها.

وصلتُ إلى مطعم فلافل «ست الشام» قبل موعدي مع عمر بزمن طويل. وقفتُ متأملاً إيقاع الناس حولي. مالي أسيرُ بهذه السرعة؟ ودمشق تحتاج

لذة البطء كي تتذوقها رويداً رويداً! تركتُ قدمي تقودني أماماً حتى وصلتُ مقبرة الباب الصغير، أقدم مقابر دمشق. هنا حيث يشارك مئات آلاف الموتى أحياءَ دمشق سكنى مدينتهم، وحيث يتجاور الفارابي ونزار قباني مع الأنبياء والأولياء قرب مقام يحمل اسم رؤوس الشهداء، غير بعيد عن المسجد الذي أُنزلت به سبايا عائلة الحسين بعد عبورهم باب الساعات. أكان السوريون في ذلك الزمن يستنكرون السبي والقتل وقطع الرؤوس كما يفعلون اليوم؟ وهل يستنكرونه حقاً؟ أم أن الغريزة أصبحت تنادي دماً بدم؟ كـ «هامة» فوق القبور تصيح «اسقوني..»، وكمهلهلٍ لا يشبع من ثأرٍ لكليب، ولا يصالح. هنا سيراق دم أربعة وسبعين شخصاً في تفجير مزدوج، خلَّفَ أيضاً أكثر من مئتي جريح، في لحظة من مستقبل أكون فيه خارج إحداثيات هذا المكان والزمان.

توغلتُ قليلاً في حي الشاغور منتقلاً من «الشاغور البراني» إلى «الشاغور الجواني»، وأنا أستذكر يوسف العظمة المولود هنا لعل عينيَّ تقع مصادفةً على لوحة ما تحمل اسمه فأتعرف على منزله، قبل أن أنعطفَ في أزقةٍ ضيقةٍ أضاعتني بين حيي «مئذنة الشحم» و«اليهود» وأنا أبحثُ عن طريقي. إلى أن وجدتُ نفسي قبالة الكنيسة المريمية في الشارع المستقيم الذي يخترق دمشق بتصميمه الروماني من الشرق إلى الغرب. تلفتُ يمنة ويسرى، ربما كنت في النقطة عينها التي التقى فيها جيش أبو عبيدة بن الجراح الداخل سلماً من باب الجابية في جهة الغرب بكتائب خالد بن الوليد الداخل حرباً من باب شرقي في الشرق. ما يزال لوجوه السكان هنا سحنات بلون الأعمدة الرومانية الأثرية التي صمدت كل هذا الزمن فيها. تابعتُ مسيري متقدماً نحو باب شرقي، الحي الذي دمر في «سنة الطوشة» عام 1860، فقتل الجيران جيرانهم بالمئات في سابقة تتكرر من جديد، لأمرَّ قرب حديقة «القشلة» الصغيرة التي كانت قبل الحرب الحديقة العامة الوحيدة التي يُسمح فيها بشرب البيرة. على ناصية حارة الزيتون التقيت بعُمر، ضحكنا سوياً من مشروع الفلافل الذي لم نكن أوفياء له دون اتفاق. اعتذر متعللاً بمغامرة نسائية طارئة، وهو عذر يستلزمُ القبول مهما عَظُمَ الجُرم. مشينا سوية متبوعين بدخان سجائرنا ومتجاوزين الحارة الجانبية حيث تستكين «سيدة النياح» وكنيستها. كل هذا الخراب يستحق سيدة تنوح عليه وعلى أبنائه، أبناؤها.

في الداخل ضاقت طاولات نينار القليلة برواد الملتقى الأدبي، البقية الباقية التي تجد فيه فسحة من حياة، وفرصة للتعرف على من يشبهنا، فيخف إحساسنا الوجداني بالوحدة كسلالة تؤول للانقراض. كان عَلي يقرأ بعض قصائد «بشير العاني»، الشاعر الذي أعدمته داعش قبل أيام بتهمة الردة، قبل أن يترك المايكروفون لأبو داني ليختم بجملة بشير الأخيرة قبل موته:

– «وبالذعر البشري الذي تستطيعه روحي أفكر بالجثث المرمية في المدن والمزارع والبلدات.. جثث برؤوس وبلا رؤوس.. من سيأبه بها أكثر من القطط والكلاب الشاردة..»

هنا نقرأ الشعر على أرواح الموتى لا الفاتحة. غادر عُمر طاولتنا مجدداً خياناته المكانية إلى طاولة أخرى احتلتها ثلاث شقروات. ضحك أحمد وهو يعب كأس الويسكي:

– عُمر ما فيك تربطه. عصفور طيار بجوانح.

ضحكتُ وأنا أتناول كأسي بدوري. كانت الصبايا الثلاث بشعورهن الشقراء المتباينة الدرجات اللونية والطول يضحكن بصخب، جرات بمرحهن وصوتهن وغوايتهن في هذه المساحة الضيقة من الحرية بعيداً عن ثقل تقاليد الخارج ورقباء العائلة. كانت إحداهن بشعر قصير تداوم على إعادة وضع خصلاتها الشقراء خلف أذنيها وهي تقوس ظهرها للخلف كهرة شامية من باب توما. تمعنتُ في عينيها الخضراوين، وسألت نفسي إن كنت أعرفها؟ دلقت كأسي دفعة واحدة في فمي، ومن خلال زجاجها الذي كان ما يزال ملتصقاً بشفتيّ يسكبُ آخر قطرات الفودكا المغشوشة إلى جوفي العطش، رأيتها دون انتظار. كانت هنا وخلفها نور الشام يشيعها مغادرة براحه الواسع، وداخلة لعتمتنا.

– حنان!

– مين حنان؟!

لم أجبْ على جملة أحمد المتسائلة بلكنة كوميدية، فقد كنتُ منشغلاً بالمفاجأة غير المتوقعة التي أرادتها حنان أن تبدو كحدث عادي. دَخلتْ بعينين مترددتين تبحث عن.. عنّي لابد. وقفتُ مقترباً منها على الفور لأخلعَ عن كتفيها حيرتها المحرجة كعباءة لا تليق بالمكان. عرَّفتني بصديقتها التي تصحبها فدعوتهما لطاولتي حيث كان أحمد يتمعن تفاصيل جسد الصديقة، مقراً بحكم الصداقة أن حنان هي حصتي من الأمسية، مبتسماً بوعيد لفريد إن هو اقترب بفضوله من طاولتنا.

– كيف خَطر لك أن تجي هنا؟

– أنت خبرتني.. امبارح لما كنا عم نتمشى حول بيتك.

ربما، ربما كنتُ قلتُ لها في مكان ما من خارطة الحديث أني سآتي؟ لكن هل أخذتْ هذا الحديث كدعوة للقاء؟! ولم تذكر الآن بيتي الذي لم تدخله؟ هل كنا نحوم حوله كغواية لاواعية؟ في أي خط فعل تورطني حنان؟ أنا الهارب من تشابكات الخطوط. جرت الأحاديث عادية على طِاولتنا التي لا تحتمل أية

خصوصية بيننا نحن الأربعة. وجاء بالتتالي جميع أصدقائي الذكور ليحيوني ويتعرفوا على صاحبة العينين الواسعتين والخلخال الكحلي التي دخلت سياج حظيرتنا كغزال مذعور، بينما كانت هي تزيح كرسيها سنتيمتراً نحوي مع كل قادم، لتحتمي بي كطفلة من أي مباغتٍ لا يعجبها. ما حاجتها للاحتماء بي؟ وهي التي لا ينقصها الذكاء ولا الفطنة ولا حتى قوة الشخصية لترد عنها كل شيء. أليست هي من كانت تزمجر في وجهي قبل أيام كعاصفة رعدية؟ ما لها الآن تُريني ضعفها كما أرتني قوتها؟! أي هشاشة تسكنُ جسدها؟ هل هذا لحاجة؟ لي؟ وأي حاجة؟

أردتُ طرد كل هذه الاسئلة التي كانت تَتَشَقلَبُ في رأسي كما لو أنها في خلاط فواكه كهربائي، لأستمتع باللحظة الراهنة كعشاء أخير يضم حواريي الحياة قبل الصلب. مالي وكل هذه التساؤلات التي تجتاحني على حين غرة كنوبة صرع تلقيني أرضاً؟ ربما في إحداثيات مختلفة كنت سأطبق على شفتيها لأزيل بطعمهما نكهة الفودكا الرديئة من فمي. كنت سأفك بأسناني سريعاً زر قميصها البنفسجي الذي تراوده أصابعها مداعبة منذ ساعة، دون أن ينفلت من مكانه مفكوكاً ليفرج عن منبع نهديها. كنتُ سأمسك كاحلها بخلخاله الذهبي وخرزاته المنمنمة الكحلية لأحميه براحة كفي من أي سهم يستهدف خلودها كـ «أخيل» أنثى تمتطي جوادها. احتكت ساقها العارية بساقي المكتسية، بصدفة أو بسبق إصرار وتصميم منها أو مني، لا أعرف. لكن إصرار ساقها وزوغان عينيها أخبراني بأن كأس البيرة المكسيكية الذي أنهته كان فوق طاقتها على غير ما توقعنا. كانت تَتَحررُ بتسارع من كل ما يثقلها. خمنتُ أنه إن مضى الحال بنا في خط الفعل هذا فسينتهي بها الأمر للقفز علي، والنوم في حضني وهي تخرخر كقطة. لحسن الحظ أو لسوء الحظ انتبهت صديقتها إلى ذلك، فمالتْ عليها توشوشها مقترحة المغادرة. بعد مماطلة قصيرة وافقت حنان. بكل الأحوال كانت الساعة تقارب العاشرة ليلاً، وكان من الأفضل العودة مبكراً في أيام شؤم كهذه لا يدري أحد ما يمكن أن تخبئه لياليها.

شيعتها حتى الباب مقترحاً مرافقتها إلى المنزل، وهو عرض من الممكن جداً أن يُفهم بمعنى مختلف تماماً في لحظة سَكَرٍ كهذه عن قصدي «البريء» لو صح الوصف. لذلك لم أصرّ حين قالت لي صديقتها بأنها هي من سيوصلها. على الباب نظرتْ إلي بعينين أكثر عمقاً من أي لحظة سابقة. ابتسمتْ لعينيَّ بصمت، ولم تقل شيئاً. كان الأفضل لها ولي أن تلتزم الصمت في لحظة كهذه. سَحَبتها صديقتها بلطف ليبتعدا، وتركتُ أنا الباب ليغلق وحده ببطء عائداً من فوري إلى الداخل. لم أكن أرغبُ بأن تراني إن التفتت في طريقها للخلف فجأة. لم أرد أن أراها تلتفتُ للخلف نحوي. لا أريدها أن تعود، ولا أن أمضي أنا إليها. لسبب ما كنت أحس أنه من الأفضل أن لا نتشابك سوية، وأنا

نبقى نسير كخطين متوازيين لا يلتقيان، كلٌ بفجائعه على حدة، بإحساس متوجس غامض من أن أي تقاطع قد ينذر بتراجيديا قاتمة.

رجع عمر لينضم إلى طاولتنا تاركاً شقراواته يضحكن وحدهن دون رجل. ابتسم أحمد وهو يسأله:

– سالم ولا غانم؟

قبل أن يعلّق أبو داني مجيباً بلسان حال عمر:

– إني رضيتُ من الغنيمة بالإياب.

عادتْ الشقراء على الطاولة المجاورة إلى تقويس ظهرها بمغالبة تعب عضلات وأضلاع بدتْ تحت بلوزتها البيضاء مكشوفة الظهر كخارطة تغويك بالإبحار، لتنفلتَ خصلات شعرها بقصته الصبيانية من خلف أذنيها. تبينتُ قرطين صغيرين مزينين بياقوتتين حمراوين. كانتْ شفتاها العاريتان من الروج متقشرتين كشفتي طفل اعتاد لحس شفتيه بلسانه، حركة كانت تكررها بعد كل مرة كانت فيها تعض بأسنانها على شفتيها، كما لو أنها تريد التهامهما.

– فَرَس مو؟

قال عمر منتبهاً لعينيَّ المتجولتين في تفاصيل تلك الشقراء بقرطيها الأحمرين. أجبتُ بجدية معللاً نظراتي باحتمالية كوني أعرفها من مكان ما، قبل أن يجبيني ببديهية فلكية:

– روح احكي معها. قلها يمكن بعرفك أنا. شو رح يصير يعني؟ ما رح تشحطك؟

هنا ضحكتُ، فجملة كهذه توحي بأكثر مما أريدُ في هذه اللحظة. رنَّ جوّالي فجأة وعلى شاشته ظهر رقم لا أعرفه. على الطرف الآخر كان الصوت المضطرب لصديقة حنان يطلبُ مني الخروج. اندفعت نحو الباب من فوري، وما أن فتحته حتى ارتمتْ حنان على صدري. دَفنتْ رأسها تحت رقبتي كما لو أنها تحتمي بي مما لا أعرف، مبللةً بدموعها الصامتة شال التركواز الذي يطوق رقبتي. قيَّدني صمتها فصمتُ، رَفَعتْ رأسها ونظرت لي بابتسامة حزينة تبحث في عينَّي عن شيء ما، عن جواب لسؤال لم تقله. خَطتْ خطوة للخلف وهي تسوي الشال حول عنقي متداركةً نفسها. مَسَحَتْ صدري براحتها كقديسة تباركني، ومن ثم لوحت بذات الكف مبتعدة. في هذه المرة لم أهرب للداخل سريعاً، بقيت مكاني بقدمين عالقتين في صلصال رخو، وما إن خطت قدماها خطوتين في الطريق حتى التفَّتْ راكضة نحوي لتطبع على

شفتيّ الذاهلتين قبلة طويلة. لم أعرف إن كانت حقاً قد همستْ هذه الكلمة، أم أن لاوعيي تخيلها:

– «اكتبني».

عدت للداخل مجدداً وأنا مشتت الذهن هذه المرة. وما أن تهاويت على كرسيي حتى رأيت الفتاة الشقراء بقصتها الصبيانية أمامي. غمزني عُمر بتواطؤ صديق يوحي بأنه قد دعاها إلى طاولتنا كي يعرفها إلي، معرفاً بي بصفات أفضل مما أستحق. أخرجتني عيناها الحذرتان من هذياني وحذري.

– رند! اسمك رند؟

هوتْ برمشيها على عينيها الخضراوين بمرح مؤكدةً، وهي ترفضُ بلباقة دعوة من أحمد لشرب كأس جديد من الويسكي، مستغربة دهشتي من اسمها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

22

قبيل منتصف الليل بقليل وقرب الحاجز العسكري على ناصية حي باب توما، تفرق الأصدقاء وكل ذهب وحيداً في طريق. بممانعة النهايات الكلاسيكية لليالٍ كهذه اقترحتُ على رند أن نمشي سوية، ضامين طريقينا في طريق واحدٍ متعللاً بأن لنا الدرب ذاته بتشويه طفيف للجغرافيا الدمشقية. انعطفنا في درب «الآسية» بقصد الوصول إلى طريق «القيمرية». تقدمنا ببطء، قالت لي أنها قد أنهت سجائرها وأنها جائعة.

– بتعرف، لما أشرب فودكا بحس أنو لازم آكل شوكولا بعدها.

أعطيتها إحدى سجائري وأنا أقول بثقة المؤمن غير المكتملة:

– فلنأمل أن نجد شوكولا على الطريق.

في زقاق جانبي ضيق تجمعت عائلة جالسة أمام باب منزلها حول طاولة صغيرة توزعت عليها صحون المازة وكؤوس العرق المتعرقة. حييتهم لقرب المسافة، فأصروا أن نشرب «شَفّة عرق» معهم. شربنا بصحتهم وصحة «الأحباب» قبل أن نتابع متجاوزين كنيسة مار يوحنا الدمشقي إلى حارة «المصبنة».

– أنت كاتب؟

– فيك تقولي هيك.

– صحفي؟

– لا، روائي. كنت بزماني صحفي، بس هي مهنة قاتلة تستهلك النفس البشرية.

– بتعرف، أنا كنت بدي صير صحفية، أنا بالأصل عم أدرس بكلية الإعلام، بالسنة الأخيرة، لكن لقيت أنه أعمل مدونة أو حتى أكتب على الفيسبوك، أهم وأحسن وأسهل من إني أركض وراء مدراء تحرير الجرائد والمواقع، وأرحم من أن أترجاهن لينشروا اللي بكتبه، وأتحمل بالمقابل غلاظة وقذارة أغلبهم.

كان فُرن «كرواسان القيمرية» ما يزال مفتوحاً لحسن حظنا. اشتريتُ منه قطعتين. أعطيتها واحدة وقلتُ ببديهية وأنا أضع العجين الساخن للثانية في فمي:

– لكن على الفيسبوك ما حدا بيدفع أجر للكتابة!

– إذا بدك تكون صحفي حقيقي ما لازم تفكر بالمصاري.

هززتُ رأسي مثنياً على مبدئيتها الطفولية دون قناعة، وأنا أمضغ العجين غير الناضج بحثاً عن الشوكولا المدفونة في مكان ما داخله. كلنا كنا كذلك، قبل أن ننقسم إلى «من يعرف من أين تؤكل الكتف، وكيف يصيد في الماء العكر» في معسكر، وإلى بقيةٍ شاكية مهزومة تتستر برايات الحقيقة العارية في جهات أخرى متفرقة. كلّ فئة كانت ترى الأخرى على هذه الشاكلة.

– بعدين لا تنسى الناس مُدمنة انترنت، وبتقرأ فيسبوك أكتر من أي شيء تاني. ما عاد حدا اشترى جرائد.

– الناس بتقرأ حسب صورة صاحبة الحساب الفيسبوكي.

قلت مداعباً يقينها، ومشككاً بثوابتها، فردت بحزم:

– وإن كان، وين المشكلة؟! المهم الناس تقرأ. بابا كان يحكي لي أن الناس كانت تروح تشوف فيلم «الفهد» مشان تتفرج على جسد «إغراء» العاري، لكن المهم أن نبيل المالح قدر يخلي الناس تجي وتشوف الفيلم ليحكي لهم عن الصراع الطبقي ومقاومة الاستبداد. بعدين على الفيسبوك القصة سهلة. لو حدا تحرش بلوك وخلصنا.

تقدمنا نحو الجامع الأموي، عابرين الفسحة الضيقة المحايدة بين مقهيي النوفرة ودمشق القديمة، بما بقي فيهما من زبائن سهارى تناثروا على كراسيهم القش في جبهتين متقابلتين. صعدنا الدرج المؤدي للبوابة الشرقية الضخمة والمغلقة دوماً للجامع، قبل أن ننعطفَ يساراً عند «قهوة خبيني»، لنلتفَ حوله عابرين سوق القباقبية الخاوي ليلاً سوى من المصلين والعساكر.

عرفتُ في ما بعد أن والدها الذي كان من محرري «الراية الحمراء»، الصحيفة الناطقة باسم رابطة العمل الشيوعي، عاش سنوات الثمانينات متخفياً في مطاردات مستمرة قبل أن يعتقل عام 1992 ليقضي تسع سنوات في السجن، ولتراه للمرة الأولى وهي في الحادية عشرة من عمرها. روتْ لي بحماس كيف كان ينتقل من منزل صديق إلى آخر، وكيف كان يتسلل سراً عن أعين المخبرين والمطاردين ليضاجع والدتها بشوق قبل أن يهرب مجدداً عند صلاة الفجر، وكيف كان ينام تحت السيارات في شوارع برزة والقابون حين لا يفتح له صديق باب بيته ليختبئ. كيف كانتْ والدتها تقرأ بلغة عربية متكسرة الرسائل التي تصلُ من محبسه أمام عينيها المدهوشتين وهي تتخيل صوته الذي لم تسمعه في صوره القليلة التي وصلتها، وكيف تفاجأت بملابسه الملونة الواسعة حين رأته لأول مرة، قبل أن تعرف أنها الملابس نفسها التي دخل بها السجن، حين كان الزمن والموضة مختلفين.

مررنا من تحت القوس الروماني لنعبر سوق الحميدية الفارغ إلا من حمام الجامع الأموي النائم. قالتْ لي وهي تنظر إلى ساعتها بأن المدينة الجامعية لربما قد أغلقتْ أبوابها. فهمتُ من هذه العبارة أنها تقيم في المدينة الجامعية، وأنه ليس من مكان تبيتُ فيه هذه الليلة. لم أقل شيئاً. تركت الزمن يمر مانحاً إياها بعض الطمأنينة، وعندما قلت لها في النهاية أن بيتي مفتوح لها، وأنه لا داعي للقلق.. مني، ضحكت مستنكرة:

– أقلق؟! من شو؟!

قبل أن تضيف بنبرة واثقة:

– ما ضل شيء الواحد يقلق عليه. بعدين لا تخاف أنا أخت رجال.

لم أخف، ولم يمنعني ذلك من أن أتأمل وقع المؤخرة المتمايلة لأخت الرجال هذه وهي تصعد أمامي الدرجات الثلاث والستين إلى شقتي ببنطلونها الجينز الواسع المتناقض مع بلوزتها الضيقة، متذكراً تفصيلاً كنت قد كتبته في بداية روايتي:

«لم ينظر نحونا أحد من الركاب،.. ما عدا الشباب الذين نظروا بتلقائية إلى مؤخرة رند المختبئة خلف قماش الجينز الأزرق وهي تغادرهم، بينما كانت رند تنحني لتخرج من الباب الواطئ للحافلة الصغيرة، في تفصيل اعتيادي يتقبله الجميع كإحدى المتع الجمالية القليلة في الحياة للمحرومين.»

أردتُ أن أسألها عن تلك الليلة، لأتأكد أنها هي رند، رند التحرير ذاتها التي كتبتها، رند التي أتتني على الصفحات من قبل دون دعوة، وقاسمتني حكاية الحرب دون أن تعرف، وليلة الحب كشهرزاد لا تمل من السرد دون أن تكون معي. ولكني أبعدت الفكرة بهدوء عن ذهني.

– دَع كل حالٍ بحاله.

قلتُ في نفسي، وهدأت.

في الداخل، جلستْ رند على الصوفا الحمراء في صالوني وهي تسعل من طعم سجائري التي دخنتها طوال الطريق كحكواتي يتأهب لبدء روي سيرة شعبية. ابتسمتُ كما لو أني أتوقع ذلك، فأنا بشكل ما كنت أعرف. مضيتُ إلى غرفة نومي لأبدل ملابسي، ولأحضر لها بعد بحث مضنٍ شورتاً أبيض وكنزة زرقاء ضيقة. لم يكن لدي ملابس واسعة كما كان لديّ في الرواية. ضحكتْ متفاجئة عندما رأتني أقدم لها ملابسي لترتديها:

– شورت! أوك، بكل الأحوال ما بعتقد رح نبرد.

تركتها تبدلُ ملابسها ومضيت إلى المطبخ لأجهِّزَ شيئاً ما لنأكله، لكن صوتها لحق بي متسائلاً بعلو عن ما إذا كانت تخيفني القذائف والصواريخ محلية الصنع التي تسقط هنا بحكم كوني جار لمجلس الشعب. أجبتها وأنا أبحث في الخزائن بأن القذائف والصواريخ تسقط في كل مكان، فلِم الخوف! وجدتُ أخيراً زجاجة نبيذ كانت مروة قد تركتها لنحتفل سوية بنجاح ما لم يحدث. من الجيد أنه هنالك علبتَيّ سردين وبعض الخبز. بعد خمس دقائق نادتني وكما لو أننا وسط لعبة غميضة:

– فَتَّح.. فَتَّح..

مددت رأسي من المطبخ. كانت بالفعل تبدو جميلة ومغوية بملابسي الواسعة عليها، بقرطيها الصغيرين الأحمرين وجواربها السماوية وشفتيها المتشققتين، رغم قصة شعرها الصبيانية المتمردة. أثنيت عليها مكرراً جملاً استعرتها من الرواية بأني لا أرتاح عندما يكون لدي أحد بملابس الخروج بينما أرتدي أنا البيجاما، قبل أن أضيف بلهجة تقريرية متكئاً على الرواية مجدداً:

– ثم إنك ستنامين هنا في النهاية، ولا يمكن أن تنامي بملابسك هذه.

لتجيبني على الفور بيقين تواطؤ مغرٍ:

– أكيد رح نام هون، بعد ما لبّستني ثيابك وين بدي نام؟!

كانت تريد القول لي ضمنياً بأن أمراً كهذا تقرره صراحة فلا داعي للمناورات بيننا. عُدت إلى علبتَيّ السردين لأفتحهما بسهولة غير منتظرة، ولأخلطهما بقليل من الزعتر البري الأخضر المحفوظ بزيت الزيتون ضمن قطرميز يمثل نهاية الإرث الذي تركته لي والدتي قبل رحيلها. وجدتْ رند بعض حبّات البندورة في البراد، فدفعتني بوركها على حين غرة كي تزيحني من طريقها وهي تردد:

– جوعانة، جوعانة..

يداها اللتان تحملان البندورة كانتا مقيدتين بينما كان وركها حراً، تجاوزتني إلى حوض المجلى لتقوم بتقطيع الحبات الحمراء على جانبه. سرقتُ قطعة على غفلة منها لأسقطها في فمي، فصرختْ بي:

– حرامي..

تركتها تقوم بترحيل الصحون إلى الصالون ذهاباً وإياباً في رحلات متتالية، بينما كنت أبحث عن مفتاح لزجاجة النبيذ، قبل أن أقرر أخيراً فتحها بالملعقة. لم تنتظرني بجوعها فباشرت الأكل بينما كنت أبحث عن أغنية ما على

اليوتيوب تُكمل الأجواء. طلبتْ مني أن أضعَ أغنية «الأطلال» إنما بصوت جورج وسوف. لم أمانع، فلتفعل شهرزادي في ليلتها ما تريد.

اسقني واشرب على أطـلاله

وارو عني طالما الدمع روى

انطلقَ صوت جورج بشعر ابراهيم ناجي، بينما مضينا نحن متجاورين بأحاديث متنوعة قليلة الفضول، وكأننا نتجنب الخوض عميقاً، بينما كنا نأكل بنهم، قبل أن نتناول كؤوس النبيذ لنشربها بهدوء أكثر رصانة. غيَّرتْ رند جلستها بعد انتهت من الأكل لتتكئ بظهرها على مسند الصوفا، وليصبح وجهها باتجاهي تاركة قدميها العاريتين على بعد سنتيمترات من جسدي، بينما عينيها الخضراوين تغوصان في لون عينيّ البني وهي تحتضن كأسها لتروي بنبيذه الأحمر التشققات العطشى في شفتيها، في الوقت الذي كانت كنزتي الضيقة الواسعة عليها تفرج عن كتفها الأيسر كسجين. حدثتها عن عائلتي التي رحل أفرادها واحداً بعد آخر لينتشروا كلٌ في بلاد بعيدة. وحدثتني هي عن والدتها الشيوعية اليوغسلافية الصلبة، التي أورثتها عينيها الخضراوين وشعرها الأشقر، بينما أورثها والدها صلابة القلب والجسد. والدتها التي أخلصت لوالدها، رغم الخلاف الفكري والثوري على تفسير تعاليم ماركس وأنجلس ولينين، إخلاصها لشيوعية «الماريشال تيتو»، ليكون كل منهما في تنظيم مختلف، كما كان كل واحد منهما قادم من بلاد مختلفة، ولتردف متعجبة:

– الشيوعيين ما بينبسطوا غير لما بيضل كل واحد منهم لحاله! منيح انهم بقيوا يناموا مع بعض وإلا ما كنت خلقت.

ضَحكتُ معلقاً:

– إذا كانت الناس عم تختلف على تفاسير القرآن، بدك إياهن ما يختلفوا على الطروحات الماركسية! هل من قليل عم ندبح بعض!

– العمى! أنا ما فيني أتخيل واحد ينام معي ويكون تفكيره بعيد عن تفكيري، كيف بدي أبوسه! وكيف بدي أشلح تيابي قدامه! وخلي أصابعه تلمس جسمي! يعع.

كانت تستخدم مصطلحاتها الجنسية بأريحية ورشاقة دون تكلف، مجردةً إياها من قشور التابوهات اللزجة، ومخرجةً إياها من أقبية الحرام والعيب الرطبة والعفنة، لتبدو نظيفة طاهرة، قبل أن تنطلقَ منشدةً مع الأغنية ببحة صوت قد توقظ جيراني البعيدين:

هل رأى الحب سُكارى مثلنا

كم بَنينا من خيالٍ حَولنا

في تلك الليلة أثبتتْ لي رند أن تعنتها الإيديولوجي في فلسفة الجسد يحتمل استثناء يشبهني وهي تغفو قربي، بينما أداعبُ خصلات شعرها الأشقر العنيدة معيداً إياها خلف أذنها للمرة الألف، لاهياً بقرطها ذي الياقوتة الحمراء وأنا أخمن ما تحلم به عيناها اللتان تتحركان تحت جفنيها المغمضين، قبل أن أترك أصابعي تسير بلا قيد على جسدها ملامسة دائرة نهدها الأيسر لتعاود الصعود إلى خصرها ولتَثْبُت راحتي على استدارة وركها باطمئنان، في الوقت الذي كان فيه مدفع «دوشكا» غير بعيد عنا يلاحق برصاصه الذي يخط السماء بلون أحمر حوّامة لا مرئية في مكان ما من السماء السوداء خلف زجاج شرفتي. ملت نحوها لأشم رائحتها، فدفعتْ برأسها إلى جسدي لتنام على ذراعي باحثة عن دفء أو حنان مفقود ربما، ولتلصقَ جسدها بجسدي العاري مُقيدة إياي بساقها ومهمهمةً بصوت نائم:

– بردانة..

بصعوبة تمكنت دون إيقاظها من الوصول إلى غطاء السرير الذي كان قد سقط أرضاً أثناء جدلية جسدينا المادية، ألقيته علينا فمنحتني قبلة شكر وهي تهمس دون أن تفتح عينيها باطمئنان:

– ما بدي يجي بكرا..

كان وجهها المدفون في عنقي يمنعني عن تأمل ملامحها كما رغِبت في ضوء متسلل لقمر فضولي، فاكتفيت بالنظر إلى أصابعها الصغيرة الغافية على صدري بأظافر غير مطلية أكلت حوافها. كانت تلك نهايةَ حديث ثلاث ساعات ابتدأت بالخلاف الفكري والالتقاء الجسدي بين والديها، لتنتهي بالخلاف الفكري بين عموم الشعب، دون جسد يجمعهم سوى «ما اصطلحنا على تسميته الوطن» كما شَدَّدتْ هي. كانت رند أناركية فوضوية ولا تؤمن بالأوطان كما بررت لنفسي.

حديثنا كان أقرب لبوح لم يوفر استخدام مآسينا الشخصية كأمثلة عند الضرورة لواقعٍ لا يحتاج لاستشهادات، ولوطنٍ «لا يعرفُ إن كان يضمّنا أم نضمّه» كما قلتُ أنا في لحظة شعاراتية. رند كانت كغيرها، وكبقية الأسماء المكتوبة على الورقة الملصقة فوق حائطي، وكأي شخص كانت ولادته في هذا الجرح الذي لا يلتحم خطأً ديموغرافياً، لم تأت ذلك اليوم إلى ساحة التحرير من فراغ، فالحياة لم تبخل عليها بالمآسي، لا قبل ذلك اليوم ولا بعده. رند التي تريد اليوم تصحيح خطأ ولادتها الديموغرافي بتغيير هذا الوطن الذي لا يحتملها، متمردة على ورقة بيان ولادتها بخانات قيدها القروسطية: الدين، مكان الولادة، القيد، اللون، الوجه، العينين، الجنس، العلامات الفارقة، ككتيب

تعليمات لآلة ما، أو كتالوج مُرفق بعبدٍ أو أمَة، مؤكدة أنها لا تؤمن بالحدود بالدرجة ذاتها التي لا تؤمن فيها بالأوطان، لتقف في كفة ميزان هلوسات الحرب المتأرجح. تذكرتُ حنان، باغتتني على عجل بعينيها الواسعتين قادمة من مكان ما من عقلي اعتقدته نائماً هذه الليلة. حنان الثابتة في الكفة الأخرى، حرّةً أو مجبرة، لتبقى راسخة في أرض تقيدها بالحدود وبالأمل.

عندما ستسألني رند لاحقاً في ذلك الصباح وهي تتمعن واقفة بالورقة البيضاء الملصقة على الحائط، والتي كتبتُ عليها أسماء شخصيات روايتي من قبل، بينما كنت أنا أتمعن جسدها المشدود العاري:

– مين هدول؟ وليش اسمي مكتوب؟!

لن أجيب، سأطبق على شفتيها فقط لأخرسهما بقبلة، فليس لدي ما أخبرها به، إذ أن الحكاية لم تصل نهايتها، وأنا لا أعرف هل ستكون صاحبة الاسم هي أم غيرها؟ لم أخبرها أني كنت أفكر بحنان بينما كانت تغفو هي في حضني بالدرجة نفسها التي كانت تتشبث بي، متسائلاً بتردد عن الاسم الذي ستحمله الشخصية في الفصل الأخير من الرواية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

23
أوراق الرواية

«قل لي يا سيلفر.. ما هو أهم شيء عندك في الحياة؟

في الوقت الحاضر.. هذا الكوب من القهوة، ولكن هذا لا يعني أن يتغير كل شيء غداً..»

القرصان جون لونج سيلفر

في المسلسل الكارتوني جزيرة الكنز.

– «انج بنفسك من هذه البلاد التي لا تَشبع دماً»

كانت هذه الرسالة ما قبل الأخيرة التي وصلتني من لارا، بعد أن طلبتُ منها التوقف عن مراسلتي إثر التحقيق الذي تعرضت له.

في صباح ذلك اليوم، وبينما كان «أبو يوشع»، المغني المتطوع برتبة مساعد أول في الفرقة الموسيقية للمسرح العسكري، يُطربنا بأبيات من العتابا ونحن متحلقين أسفل الدرج حول السخانة الكهربائية الصغيرة ذات القرميد المتحطم، طلب مدير الصالة حضورنا جميعاً إلى مكتبه. بقي العقيد صامتاً واجماً أمام أسئلتنا المستفسرة، وعندما اكتمل حضور الجميع، بادرنا بلهجة آمرة:

– الكل يحط جوّاله على مكتبي.

وما إن فعلنا ذلك خاضعين للأمر العسكري حتى أمر رئيس الحرس بجمعهن في كيس قمامة بلاستيكي أسود أمام نظراتنا المصدومة. انطلقت الاحتجاجات على خجل، ثم بدأت تحتد أمام تبريرات العقيد غير الكافية لتؤكد أن ما يحدث هو مجرد إجراء روتيني، وأن أجهزة الموبايل ستعود لأصحابها غداً، لينتهي به الأمر إلى القول:

– شو بيعرفني أنا! حدا خطَر له فجأة يفتش موبايلاتكم.

خرج الجميع مستنكراً بدرجات متفاوتة، بينما كان أبو يوشع يردد وحده:

– مو حكي هاد، مو حكي بنوب، الواحد أهله، أولاده، شغله، هلأ إذا اتصلت مرتي وما رديت، بربك رح يخطر لها أنه الحكاية هيك.

ضحكتُ محاولاً التخفيف عنه. بالنسبة لي لم يقلقني شيء. حاولتُ أن أتذكر ما تحتويه ذاكرة جهازي، كما يفعل الجميعُ حولي في هذه اللحظة كنوع من

التأمل الجماعي الصامت دون اتفاق. باستثناء بعض الصور شبه العارية لمارلين مونرو ومونيكا بيلوتشي، وفيلم قصير ترقص فيه إيزادورا دنكان عارية قبل قرن من الزمان، ليس هنالك ما يثير الاهتمام. أما بالنسبة للأرقام المحفوظة، فلربما بعض أسماء الاصدقاء الذين أصبحوا في الخارج تثير الريبة، لكن سيكون من السهل التأكد من أن لا تواصل بيننا مؤخراً، فقد كنت مجبراً على ذلك من باب الحذر. بهذه النتيجة التي خلِصتُ إليها أغمضتُ عينيّ عائداً للتقوقع باطمئنان إلى أن كل شيء على ما يرام أسفل الدرج في صقيع الصالة الذي لا ينتهي. لكن ما حمله صباح اليوم التالي كان ما لم أنتظره، وإن كان بشكل ما متوقعاً في أية لحظة من حياتنا السورية. طلبني العقيد إلى مكتبه ليخبرني بضرورة التوجه على الفور إلى مقر الإدارة، متهرباً من أسئلتي المستفسرة، والمبتدئة بـ: كيف؟ ولماذا؟ وما الذي سيحصل؟ وهو يردد:

– شو بيعرفني! هم طلبوك بالاسم وما حكوا ليش.

هناك، وعلى غير العادة لم يتركوني أنتظر في الممرات طويلاً. دخلتُ مكتب العميد، لكنه تركني واقفاً لأكثر من خمس دقائق دون أن ينظر إلي، متشاغلاً بتوقيع بعض الأوراق ببطء رهيب لا يخترقه سوى صوت إذاعة صوت الشعب ببث مباشر عن أسعار الخضروات من سوق الهال. تلتها خمس دقائق أخرى وهو يتحدث بالهاتف متفحصاً إياي في الوقت نفسه، من قدمي إلى رأسي صعوداً ونزولاً، قبل أن يطلب مني الجلوس بلهجة أرادها هادئة ولطيفة. سألني برقة، لا تتوافق مع بزته والنجوم البراقة على كتفيه، إن كنت أرغب بشرب فنجان قهوة. شكرته مبعداً عن ذهني رمزية فنجان القهوة في مكان كهذا، قبل أن أنتبه إلى أن جهاز الموبايل الخاص بي يتموضع على طاولة مكتبه بين عدة أجهزة أخرى، ألصق على كل منها قصاصة تحمل اسم مالكه. انطلق العميد في حديث متلوٍ مازجاً مفاهيم الانضباط والاخلاص والوطنية والانسانية كيفما اتفق، في الوقت الذي يحاول ذهني استباق كلماته لمعرفة ما هو الشيء الذي يوجد في جهازي ليستدعي خطاباً قومياً كهذا. لم يتأخر التصريح كثيراً. وضع نظارته المعدنية مثبتاً إياها على مقدمة أنفه ونظر إلى ورقة أمامه وهو يلفظ اسمها، متابعاً بسؤال عن مهنتها دون أن يتيح لحظة لدهشتي أن تأخذ مداها.

–.. باليرينيا.

– نعم؟!

– راقصة باليه قصدي.

حدثني عن زيارته لمسرح البولوشي أثناء دورة تدريبية في موسكو في زمن بعيد، وكيف تمكن من دعوة إحدى الراقصات الثانويات إلى تناول العشاء في مطعم مجاور محققاً فتحاً عظيماً في بلاد الروس. أقنعتُ نفسي بأن نبرته وجمله المتتالية بثقل لا تخفي في طياتها تهديداً بخطر محتمل يرتقبني، بالدرجة ذاتها التي كنتُ أقنعُ نفسي فيها بأن لارا ليست سوى نورس سلام لا يهدد حياتي. توالت أسئلته حول أدق تفاصيلها، عمرها، دراستها، عائلتها، تاريخها، أقاربها، مكانها، نشاطاتها، توجهاتها السياسية، وكل شيء يمكن أن يخطر في ذهن محقق لا يهمه سوى ملء حقول استمارته بالبيانات. كدتُ أقول أنه لم يبق إلا أن تسألني إن كنا مارسنا الجنس! قبل أن يفاجئني بهذا السؤال بالفعل. أنكرتُ كاذباً كما كان يفترض بي، ولم يصدقني بالطبع كما كان يفترض به. وعندما كنتُ أغادر البوابة الكبيرة بوجوه حرسها الملوحة بالشمس بعد أن انتهى «لقاء التعارف» كما أسماه، كنت أحلل معنى ما جرى لأصل إلى أن هذا «التحقيق» كما هو في الحقيقة، ليس إلا إنذاراً استباقياً بمعنى «نحن نرى ونعرف ما تفعل». كانت هذه بالفعل فكرة استراتيجية ذكية رغم تكتيكها الغبي، إذا أنه من الآن سيزرع داخلي ذلك الإحساس بأني مُرَاقبٌ ومُقيد، وسيكون عليّ أن أضعَ كل فعل أو كلمة أو تواصل أقوم به في ميزان الرقيب الذي أرسل داخلي، والذي سيبقى، رغم قيوده التي ستحصرني، أكثر رأفة من رقيبهم العتيد. ولكن، ما شأنكم ولاراي؟ ألا يكفي أنها الآن في قارة أخرى!

في مساء ذلك اليوم اكتشفت أن لارا كانت قد شاركت على صفحة الفيسبوك الخاصة بها مقالاً مترجماً يتحدث عن عدد الضحايا التي التهمتهم الحرب السورية، ويقدم تصوراً للمستقبل الذي ينتظر من بقي حياً في هذه البلاد حتى الآن مذيلاً بتوقيع توماس فريدمان. لا أعرف إن كان ذلك ما أزعج شخصاً ما في مكان ما، أم أن الأمر لا يتعدى التوجس من عدد الاتصالات والمحادثات الهائل بيني وبين هذه الغريبة التي ترقص وحيدة في أوروبا. لربما كلا الأمرين اختلطا ببعض كما يختلطان الآن داخل رأسي. تشاجرنا بعنف رغم آلاف الكيلومترات بيننا كما لم نفعل يوماً، وأنا أستهجن استفاقة اهتماماتها السياسية المفاجئة، طالباً منها بسخرية أن تضع مقالات باتريك سيل في المرة القادمة، فعلى الأقل هذا لن يسبب لي «أسئلةً ووجعَ رأسٍ أنا بغنى عنه»، بينما كانت تجيبني مدافعة بأنها لا تهتم بالسياسة ولا تعرف من هم فريدمان أو سيل، وكل التجاذبات والانقسامات التي تمزق هذا البلد وشعبه إلى قطع صغيرة متناثرة ومتكارهة، لا تعني لها شيئاً. مؤكدة أنها تهتم فقط بالناس وما يحدث في البلد بشكل طبيعي كأي سورية تعيش هنا.

– أنت لست هنا، ولم تعودي تعيشين هنا.

أخرستها بجملتي بعنف مشدداً على قولها بالفصحى، قبل أن أضيف أنه من الأفضل لي ولها أن نتوقف عن التواصل، دون شرح المزيد أو المرور على عملية استباحة جوّالي التي حدثت مؤخراً، وخاصة محادثاتي معها. ما أن انتهتْ محادثتنا الأخيرة، كما توقعت، حتى أخضعتُ هاتفي للتحقيق بدوري، لأحذف منه الكثير من الصور والمحادثات القديمة، والأسماء التي فُقد التواصل معها لأسباب عديدة تتراوح ما بين اختلاف الآراء واختلاف الجغرافيا، وصولاً إلى مقتل أصحابها. لكني أبقيتُ على أسماء المختفين، فهؤلاء قد يعودون يوماً.

بينما كنتُ أقنع نفسي على مضض بأن ما حدث بيني وبين لارا هو لمصلحة الجميع، وأنا أعدُّ لنفسي فنجان قهوة في الساعة الواحدة صباحاً، لأبعد الصداع الذي سببه صوتي العالي وأنا أصرخ كمدفع مُتعب في وجهها الذي لم أعد أراه، وصلتني رسالتها تلك، لتضيف برسالة أخرى تلتها:

– «لم يعد لنا نفس الطريق، فأنا لن أعود وأنت لن تغادر.»

سأرى جسدها بعد شهور ملفوفاً بالبياض في صورة على صفحة الفيسبوك الخاصة بها، والتي لم أفلح بالتهرب من تفقدها كل ليلة قبل نومي، بين يدي شاب أشقر بعينين لا تشبه عينيّ، ونظرة لا تشبه نظرتي، وهما يرقصان سوية على خشبة مسرح ضمن عرض باليه في مكان بعيد ما. في الأسفل توالى كم كبير من عبارات التهنئة بالنجاح، ثم التهنئة بالزواج، والتمنيات بحياة سعيدة وأطفال كان من المفترض أن أنجبهم أنا منها، أطفال مستقبليون لن يكون لهم عيون بنية كعينيَّ اللتين لم تناما تلك الليلة. قرأت أسماء المهنئين الذين كان بينهم عدد كبير من أصدقائي وأنا أشتمهم واحداً واحداً، يا لخيانات الأصدقاء. أحسستُ نفسي وحيداً وأعزل، كما لو أني في حفرة قذيفة وسط قصف ليلي في معركة خاسرة. كنت بحاجة لأحد بجانبي.. أستند عليه.

فتحتُ هاتفي على رقم مروة وأنا أراود نفسي عن الاتصال بها. لا بد أنها الآن تنام في أحضان زوجها وقريتها، كما تظهر في هذه الصورة المخادعة لحسابها على الواتس آب. مروة التي تخلت عن تمردها وإيقاع حياتها الضاج كمدينة مزدحمة لا تنام لتمضي إلى منفاها الاختياري مبتعدة عن كل شيء عاشته، ومحطمة نبوءتها بأن لا شيء يباعد بيننا، وأن علاقتنا لن تنتهي طالما بقينا أحياء. مع ذلك تذكرت عينيها البنيتين والعبارة التي كانت ترددها دوماً كنذير شؤم لم أنتبه لغرابه:

– «بعيد عن العين، بعيد عن القلب.»

طرقاتٌ خفيفة على الباب تسللت إلى مسمعي، لا ليست مروة، مروة بعيدة ولا تأتي ليلاً. توجست من زائر الليل المفاجئ هذا، فغيرت القناة التلفزيونية

التي أشاهدها على جهاز التلفزيون لأضع علي القناة الفضائية السورية، ومضيتُ بتردد لأفتح الباب وأنا أتلفتُ حولي باحثاً عما يمكن أن يثير أي شبهة لأخفيه. سألتُ من الطارق؟ دون أن تأتيني إجابة. زادَ توجسي من أن زواري المنتظرين لا بد أنهم من رجال الأمن، نظرت من العين السحرية لأرى شبحاً أمامي يلتف بالظلام، قبل أن أفتح بهدوء متصنعاً الثقة، فعلى الأقل لا يجب أن أبدو مضطرباً وخائفاً وبالتالي مثيراً للريبة. لكن الباب انزاح عن عينين خضراوين كغوطة مُتعبة.

تهاوتْ على الصوفا الحمراء دون أن تَشبكَ ساقيها في جلستها. كانتْ تلهثُ من تعب صعود الدرج أو من تعب أعمق. سكبتُ لها فنجاناً من قهوتي التي ما تزال دافئة في الركوة، بانتظار أن تقول شيئاً. لكن رند بقيت صامتة لفترة طويلة، نظرتُ إلى عينيها علهما تخبراني شيئاً، لكنهما بقيتا صامتتين أيضاً.

– ما إلي غيرك..

لم أكن قد رأيت رند منذ قضتْ ليلتها لدي قبل سنوات، إثر عودتها المتخفية من ساحة التحرير في تلك الليلة من آذار 2011. أخبرتني أنها ولثلاثة أيام متتالية تقرع باب منزلي في ضاحية صحنايا دون أن يُفتح لها الباب. لم تعرف أني تركتُ ذلك المنزل منذ أوقفت مجموعة مسلحة حافلة النقل العام الصغيرة التي كنت متوجهاً فيها إلى دمشق في بدايات الحرب. لحسن حظي لم يطلب أحد من مسلحيها هويتي، وإلا لربما كانت حكايتي قد انتهت قبل أن تبدأ. أخبرتني أنها توصلت لمعرفة مكان سكني مؤخراً عبر صديق لي كانت قد التقته مصادفة من قبل، مؤكدة أنه تهرَّب طويلاً قبل أن يبوح به أمام إلحاحها، ومبرأة إياه من تهمة خيانة قد أوجهها له، كونها فهمت أنه ليس هنالك الكثير من الأشخاص الذين يعرفون مكان سكني. كنتُ اعتقدُ أنها قد هاجرت مع من هاجر، لكنها أخبرتني أنها كانت على وشك ذلك، مضيفة بحسرة أنها تنتمي لإرث أوطان لم تعد موجودة. كل ذلك لم يكن إلا تمهيداً للطلب الذي انتظرته وهو يلوح من عبارتها الأولى، لكنها أكملت:

– بابا مخطوف..

شَرَحتْ لي بشكل مفصل كيف تم اختطاف والدها قبل خمسة عشر يوماً وهو قادم لزيارتها في دمشق. أوقفوا سيارته وأجابوه حين قال لهم بأنه معارض سياسي، وأنه قد أمضى تسع سنوات في السجن:

– «طز.. نحن حرامية».

أرتني مقطع فيديو قصير على شاشة هاتفها، يظهر والدها فيه كسيراً كما لم تره يوماً وهو يتحدث بصوت مضطرب طالباً من عائلته الإسراع بدفع الفدية

البالغة أربعين ألف دولار كي لا يقتله مختطفوه، مضيفة أنها ووالدتها منذ ذلك الوقت في حيرة. أعمامها رفضوا مساعدتها متعللين بأن والدها شيوعي لا يؤمن بالله، وما هذا إلا امتحان سيعود إن نجا منه، وما عليها ووالدتها إلا أن يصبروا أمام مشيئة الله، فلربما كان في هذا البلاء خير أراده الله لهم. كانت تلك فلسفة غريبة، لكنها كثيراً ما ترددت أمامي في السنوات الأخيرة كنوع من إنكار المنطق اللاعقلاني لما يحدث، واستبداله بأي منطق ولو كان غيبياً. قلت أني لا أملك من هذا المبلغ شيئاً للأسف، لكنها أجابتني بأن هذا ليس ما تريده مني، قبل أن تضيف:

– بدي تجي معي.

– لوين؟

– نجيب بابا.

أخرسني طلبها، فتابعتْ رند مستبقةً جواباً متوقعاً مني:

– المفروض سلمهم المبلغ بكرة بعد الظهر. ما فيني روح لحالي. وماما مو ممكن اتركها تروح معي. كل رفقاتي خافوا وما حدا رضي يرافقني. ما فيني لومهم، إذا الأقارب خافوا، فكيف بدي أعتب على الغريب. وحتى أنت، إذا ما وافقت فما رح لومك. لكن ما ضل إلي أمل غيرك.

لم تترك لي فرصة لتهربٍ كان يَصعُبُ عليَّ أمام عينيها الدامعتين، كما كانت تَصعُبُ علي هذه المهمة، فأطرقت رأسي صامتاً ومفكراً. كان كلانا محصورين في زاوية ضيقة لا يمكن الخروج منها بأي طريقة.

– وين الموعد؟

– رح يرسلوا إلي موقع المكان قبل ساعتين من الموعد.

لم أخلص إلى نتيجة، فما كان علي إلا الموافقة بجملة لا تعبر عني حين أقولها:

– انشاء لله خير.

الأمر لم يكن بهذه السهولة. فقد كان هنالك الكثير من التفاصيل المعقدة التي لم تفكر فيها رند وسط لهفتها لإنقاذ والدها، وجريها دون جدوى بين الناس لطلب المساعدة، والتي لم أفكر فيها أنا أيضاً عندما وافقت. لكن حين كانت تقاسمني سريري وهي تتكلم أثناء نومها مصارعةً كابوساً واقعياً في نهاية تلك الليلة، كنت أنظر أنا إلى سقف غرفتي متمعناً فيه كما لو أنه غيمة تمطر عليَّ دموع عينيها، وأفكار سريعة تجوب رأسي دون جواب: كيف سنصل إلى هناك؟ كيف سنمنعهم من خطفنا أو قتلنا لو أرادوا؟ هل علي أن

أخبرها بأني أؤدي خدمتي الإلزامية؟ وأن ذلك يجعلني صيداً لا بأس به لمن يرغب بغض النظر عن معتقداتي. هل سنعود بوالدها أم بجثة له؟ كيف سينتهي كل هذا الجنون؟ هل علي أن أودع والدتي البعيدة قبل الذهاب؟ دون أن أثير مخاوفها اليومية أكثر. مع ذلك أقنعتُ نفسي بأنهم مجرد لصوص، قطّاع طرق يملكون من الشر أقل مما نخشى، وما من داع للتوجس خيفة من أشياء لن تحدث في هذه الهستيريا الوطنية التي لكل منا دورها فيها.

في صباح اليوم التالي غادرتُ باكراً إلى صالة المسرح العسكري، تاركاً رند نائمة وخصلات شعرها الأشقر تنسدل على عينيها المتعبتين المغمضتين. سألني حسن الذي سيختفي لاحقاً ضمن أحداث حي الحجر الأسود عن سبب وجومي وصمتي دون أن أجيب تحيته. كان حسن الذي ينتصب أمامي بقامته الفارعة وسمرته التي تشابه اسم الحي الذي يقطنه، يعمل ضارب طبل في الفرقة الموسيقية هنا، وسائقاً لسيارة تاكسي يملكها أحد الضباط في الوقت نفسه، وهو ما يمنحه حرية القدوم والمغادرة دون رقابة على دوامه وغيابه. قلت له:

– إلك ولا للديب؟

– خسَا..

عندما تُبادر حسن بسؤال كهذا فإنه لن يخذلك مهما كان هول ما تطلب، مع ذلك لم أبح له بكل التفاصيل. قلت له إن لدي مشواراً خاصاً جداً وأريده أن يصحبني إليه بسيارته، مطمئناً إلى أن لحسن مسدساً فضياً لا يفارقه أبداً. لكن السائق قارع الطبل هذا، مع توجسه الضمني من عدم إفصاحي للوجهة التي سنذهب إليها، لم يكتف بذلك، فرمى الخمسة آلاف ليرة التي أعطيتها له في جحر تابلو السيارة أمامي مظهراً داخله أربع قنابل يدوية ترتج بمسامير أمانها على وقع الحفر في الإسفلت غير المنتظم للطريق، بينما كنا نبتعد في سيارته الصفراء باتجاه صحراء الديماس شمال غرب دمشق وقريباً من الحدود اللبنانية، وفي حين كانت بندقية كلاشينكوف «حَمّويَّة» تقبع ما بيننا بمخزن ممتلئ أمام رند الجاثمة في المقعد الخلفي تلهث بخليط من أمانٍ وأدعية لم أسمع بها يوماً.

بعد وصولنا بنصف ساعة، لاحت لنا سيارة بيك آب بيضاء قادمة من طريق ترابي بعيد. سحب حسن مسدسه من حزامه وعيناه لا تفارقان زوبعة الغبار التي تثيرها السيارة ورائها «ليُخَرطِشَه» بعد أن أزال قفل الأمان عن زناده، دون أن يلقي عليَّ أي سؤال عن الذي نفعله هنا. توقفت السيارة البيضاء على مسافة خمسين متراً منا ليترجل منها أربعة رجال، تقدم أحدهم نحونا

بخطوات واثقة ووجه محتجب بلثام. لم أعرف ما الذي يجب القيام به، لكني استبقتُ وصوله، فنزلتُ وتوجهتُ نحوه. بادرني على الفور دون أي تحية:

– معكم المبلغ كامل؟

– إي.

التفتُ خلفي، فهمَّت رند بالنزول، لكن حسن قبض بكفه على ذراعها مانعاً إياها من مغادرة السيارة، ومخمناً أنه من الأفضل أن لا يروا هذه الشقراء بعينيها الخضراوين اللتين يمكن أن تُعقِّدا الموقف أكثر. عدتُ إلى السيارة لآخذ الكيس الذي يحوي مبلغ الفدية. مدَّ حسن لي يده بقنبلة يدوية وهو يهمس لي:

– حط هي بجيبتك.

لكني لم ألتقطها شارحاً له بثلاث كلمات أني لا أعرف كيفية استعمالها، فقطب جبينه باستنكار قبل أن أعود إلى الرجل الذي أحصى المبلغ بعينين خبيرتين دون أن يخرجه من الكيس. أشارَ لرفاقه بيده فرموا من صندوق البيك آب شوال خيش كبير ذو خط أحمر، من النوع الذي كنا نطلق عليه قديماً في قرانا «عِدْلْ أبو مِيْلْ». كان الشوال يتحرك مما منحنا بعض الثقة بأن والدها على قيد الحياة داخله. أمرني بأن لا أفتح الشوال إلا بعد مغادرتهم، لم يكن بإمكاني المجادلة والتفاوض، كنت أريد أن ينتهي كل شيء على ما يرام فقط دون أي تعقيدات، وأن ينقضي هذا اليوم بلا كوارث إضافية تضاف إلى كوارث حياتنا السابقة، بينما كانت يد حسن الصامتة تقبض بثبات على ذراع رند، رغم حركاتها الهوجاء بلا جدوى للتملص منه والجري نحو والدها.

انطلقت سيارة البيك آب مبتعدة بسرعة، مخلفة عاصفة غبارية خلفها حجبت قرص الشمس المشارف على المغيب. التفتُ نحو رند، وكما لو أنها إشارة، أفلتَ حسن ذراع رند لتنطلق كعاصفة مباغتة نحو والدها وصرخاتها تشق الصمت المهيب للمكان:

– بابا.. بابا..

تجاوزتني فركضتُ خلفها، انهارتْ على شوال الخيش القاتم لتشق بأظافرها المقضومة أليافه الثخينة، وقبل أن أصل إليها انطلق من بطن شوال «العِدْل أبو مِيْل» غزال صغير بلون غُباري محمر، ليجري فَزِعَاً في فضاء الصحراء الواسعة، بينما كانت الشمس المحمرة تلقي آخر أشعتها عليها صابغة سماءنا الزرقاء بلون برتقالي حزين. توقفتُ مدهوشاً بينما عقدت الصدمة لسان رند. وصلتُ إليها بخطوات بطيئة واحتضنتها وهي تنتحب بصمت جاثية على الأرض

دون أن تفلت يداها كيس الخيش أو عيناها الغزال الراكض كوليد جديد. احتضنتها ولم أقل شيئاً، فليس هنالك ما يقال.

غير بعيد عنا وقف حسن متكئاً على سيارته، محاطاً بالدخان الكثيف لسيجارته التي يدخنها، وعيناه تتابعان هذا الغزال الذي يجري حولنا في كل اتجاه بحثاً عن حرية ضائعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

24

– هل كانت هذه هي النهاية؟

– هل يجب أن يحمل الفصل الأخير اسم حنان في متنه أم رند؟ هل أنا من يملك الخيار والقرار؟

كنت أسأل نفسي، وأنا أفكر بأن هذه الحكاية تتمرد علي مجدداً، لتختار مسارها الذي تريد كمسار طبيعي لها. لستُ أنا من قرر أن لرند وحنان الخط ذاته، فلكلتيهما الفجيعة ذاتها بشكل أو بآخر. أليست هذه هي الحكاية؟ حكاية الحكايات، لارا ومروة، وحكاية رند وحنان، وحكايتي، وحكايات كل هذه الشخصيات التي كتبت أسمائها على جداري كي لا يبتلعهم النسيان. هربت من تساؤلاتي منهياً الأمر بإرسال الفصل الأخير إلى حنان دون مراجعة، فلم تكن لي القدرة على إعادة قراءته. سأتركه لحنان وأصابعها التي تحرره. حنان التي هي «محررتي» بكل معاني اسم الفاعل هذا. «بكبسة زر» حاسمة أرسلته عبر البريد الالكتروني، مرفقاً بملاحظة صغيرة توضح أني لست متأكداً بعد إن كانت الشخصية في الفصل الأخير هي رند أم شخصية أخرى، وأي اسم ستحمل هذه الشخصية.

فكرت لاحقاً وأنا أغادر شقتي لأهيم على وجهي في شوارع دمشق، أن تساؤلاً كهذا يحمل غواية كبرى بأن يضع كل منا الاسم الذي يرغبه للشخصية، فيأخذ ما يريد له من الحكاية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

25
أوراق الرواية

«رغم أن الأشياء حولي ما كانت تعنيني، إلا أنني كنتُ أُحسُّ على سبيل المثال بالألم.»

دوستويفسكي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– «ملاحظة: في كل فصل حررته من روايتك كنت أجد نفسي تنازعني للتسلل بين سطورك. إذ أجد يوماً بعد يوم نفسي أكثر في الحكاية، بينما كنت أحاول أن أقيدها أنا بحياد المحرر. أما وقد وصلنا للنهاية فلربما غافلتني نفسي الأمّارة لتأخذ نصيبها من الحكاية، ولتترك أصابعي على رسم كلماتك بصمات روحي التي تبحث عن خواتيمها المختلفة. أعيد إليك نسخة مختلفة لنهاية الفصل الأخير من الرواية محرراً. قد تستوقفك الاختلافات عما كتبت أنت، في كل حال تبقى لك الحرية لتفعل ما تشاء، وتختار ما تريد».

.. حنان

....

«بعيد عن العين، بعيدة عن القلب».

أمام الباب المزدان ببوستر فيلم «أحلام المدينة»، وقفتُ محاطة بعتمة الليل ويدي تتردد أن تقرع عليه. هل هو هنا؟ هل هو نائم؟ هل هو وحده؟ هل سيتفاجأ بي؟ هل خطر له أني قد أتي إليه يوماً، فأصعد كل هذه الدرجات ما بيني وبينه؟ هل به طاقة ليحتضن أحزاني؟ داهمتني تساؤلات كثيفة إلى درجة رغبت فيها أن أطرق الباب برأسي بدل يدي. جاءني صوته من الداخل وهو يشتم أسماءً لا أعرفها، قبل ينطق تلك العبارة بصوت لا يخلو من الحسرة. علي أن أصححها لتغدو «بعيدة عن العين، بعيدة عن القلب». فأنا المنذورة لأن أكون البعيدة دوماً؟!

طرقت بهدوء على بابه الحديدي البارد فسكنت الحركة في الداخل. لا أعرف إن أتاني صوته يسأل عن الطارق أم كان يتحدث مع شخص آخر؟ كدت أصرخ:

– هذه أنا.. أنا هنا.. أنا الآن وهنا.

لكن شفتي بقيتا جامدتين وصامتتين، كمعدن هذا الباب الذي يفصل ما بيننا، قبل أن ينزاح أمام عيني عن عينين بنيتين كحياةٍ منتظرة. كان هنا أمامي،

وفي عينيه دهشة من امرأة غير متوقعة تأتيه ليلاً عقدت لسانه إلا عن لفظ اسمي:

– حنان..!

في الداخل جلست على صوفا حمراء. تجول بصري مستكشفاً المكان وأنا ألهث بعمق أمام نظراته المتسائلة وهو يجلس أمامي. سكب لي فنجاناً من القهوة الدافئة وتبادلنا الصمت لفترة طويلة، نظر إلى عيني يبحث فيهما عن شرح، ونظرت إلى عينيه أبحث فيهما عن مأوى.

– ما إلي غيرك.

لم أكن قد رأيته منذ افتراقنا الأخير. بعد ذلك اليوم كان علينا أن نتباعد توجساً من تقارب أعمق. قال لي لاحقاً أنه أعتقد أني هاجرت أو سافرت إلى مكان ما، رغم يقين خفي وغير مفهوم كان لديه بأني لا أسافر ولا أهاجر، وأني ثابتة في هذه الأرض كثبات اسمينا. أي حسرة في الانتماء لوطن يموت أطفاله بالتتالي أمامنا. كل ذلك لم يكن إلا تمهيداً بطيئاً لإعلان الفجيعة.

– ما إلي حدا غيرك.. بابا مخطوف.

شَرَحتْ له بشكل مفصل كيف تم اختطاف والدي قبل خمسة عشر يوماً وهو قادم لزيارتي في دمشق. أوقفوا سيارته وأجابوه حين قال لهم بأنه معارض سياسي وأنه قد أمضى ثلاثة عشر عاماً في السجن:

– «طز.. نحنا حرامية».

قبل أن أجعله يشاهد الفيديو القصير الذي أرسلوه لي، وفيه يظهر فيه والدي كسيراً متعباً. لم أستطع أن أكبت حزني الذي انفلت. رغبت أن يحتضنني، أن يغلق بأصابعه جفني ليمنع انهيار عينيّ بالدموع أمام مرأى والدي وصوته طالباً دفع أربعين ألف دولار لخاطفيه كفدية كي لا يقتلوه. لم يكن من السهل علي أن أشرح له كيف تخلى الجميع عنا، الاصدقاء، العائلة، لأبقى ووالدتي في محنة اسماها الأقارب امتحاناً ربانياً لوالدي الملحد، كفرصة أخيرة للتوبة ودخول جنته، وما علينا إلا أن نصبر على هذا البلاء الإلهي.

كانت السيجارة تهتز بين أصابعه بمزيج من الغضب والتوتر. قال لي بأنه لا يملك هذا المبلغ، لكن لم يكن هذا ما أريده بأي حال من الأحوال. خفت أن يخاف، لم أكن أريد أن يتسلل إليه شعوري بالعجز، وأنا أبحث عنه لأستند عليه. أحسست أنه يجب عليَّ الآن أن أحتضنه أنا، لأمنحه بعض الأمان والدفء الإنساني ليهدأ غضبه.

– بدي تجي معي بكرا.

– لوين؟

– نرجّع بابا.

اتسعت عيناه، بصمت، بدهشة، بتساؤل، بتوقعات لا أملك أن أشرح منها شيئاً.

– لازم سلمهم المبلغ بكرة بعد الظهر. ومن غير الممكن روح وحدي، وماما أكيد ما فيني خليها تروح معي. أصدقائي خافوا وهربوا لما طلبت منهم يجوا معي. ما فيني لوم حدا. لما بيتخلى عنك القريب ما فيني أعتب ع الغريب. لكن أنت بتعرف أنك مو غريب، أنا بحاجتك تروح معي، لكن لو خفت ترافقني..

صمتتْ أمام عينيه المذعورتين ولم أكمل جملتي. هل هو أيضاً سيخيبني؟ هل ما أطلبه يتجاوز طاقته وقدرته؟ هل سيقوم بما يفعله الجميع؟ فينزوي بنفسه مبتعداً عن المصائب وراضياً بخلاصه الفردي فقط! هل سيقول لي أني لا أملك إلا الصبر، وأنه لا يملك إلا الدعاء بالفرج؟

– ما إلي أمل غيرك.

لا أعرف كيف خرجت هذه الجملة من شفتي، وعما كانت تبحث هذه الكلمة «أمل»! لكنه لم يهرب بعينيه البنيتين من عيني. كنا محصورين معاً في زاوية ضيقة لا يمكن الخروج منها.

– وين الموعد؟

– رح يخبروني بموقع المكان قبل ساعتين من الموعد.

أطرق برأسه طويلاً وهو يفكر بصمت، بينما كانت عيناي تجولان متفحصة تقاسيم وجهه، ومحاولة النفاذ إلى داخله، إلى أن فاجئني بجملة لا تعبر عنه، أو عني:

– انشاء لله خير.

لم يكن الأمر بهذه السهولة. فقد كانت هنالك الكثير من التفاصيل المعقدة التي لم أستطع التفكير فيها وسط لهفتي لإنقاذ والدي، أول رجل يعني لي شيئاً على هذه الأرض، ذلك الرجل الذي هو سبب ولادتي، وسبب وجودي هنا أمام الرجل الأخير الذي يعني لي شيئاً على هذه البقعة من الوطن. تفاصيل لم أرد التفكير فيها للبحث عن أجوبة لأسئلة تطرحها عيناه الحائرتان أمامي علي أنا التي لا أملك أجوبة. لكن حين قاسمني الدفء تلك الليلة، كنت أفتح عينيّ وأنا أصارع كوابيسي لأصحو مراراً وأتأكد أني لا أزال ألوذ بصدره أغفو عليه، وفي كل مرة كنت أسترق النظر مِن بين خصلات شعري الأسود إلى

عينيه باحثة على أجوبة لأسئلتي أنا أيضاَ، فأراهما معلقتين بسقف الغرفة، متمعنتين فيه كما لو أنه سيمطر علينا ماءً أو قنابل. أردت فقط أن أضمه إلى جسدي وأغمض عيني، لنغفو بسلام وسط هذه الهستيريا الوطنية.

في صباح اليوم التالي وجدت نفسي وحيدة في سرير وسيع فارغ. نظرت حولي فلم أجده، ترددت قبل أن أنطق باسمه، ثم أصرخ به لعله يجيب. لكن الصمت بقي سيد المكان دون صدى لصوتي لديه. لم يكن هنا. لم يكن هنا وانتهى الأمر. لربما آثر الهروب بهذه الطريقة، متجنباً حتى المواجهة معي ليخبرني بأن ما أطلبه يتجاوز قدرته، وأن لا طاقة له بحزني، وأنه لا يملك من الشجاعة ما يمكن أن يكفكف دمع مأساتي. ليس عليَّ أن أظلمه، فلم عليه أن يساعدني متكبداً مخاطرة قد تكلفه حياته! بينما يستطيع أن يستمر بيومه بعيداً ريثما أفهم الأمر أنا وأغادر بيته، فيعود هو لمتابعة روتين حياته دون مجازفة، وأعود أنا إلى نصيبي من المأساة بعيداً عنه. لم عليه أن يقبل بأن يتشابك خطينا في الحياة أكثر ما يحتمل؟

مع ذلك، كنت بعد ساعات قليلة في المقعد الخلفي لسيارة تاكسي صفراء تنهب مسرعة طريق صحراء الديماس شمال غرب دمشق، وكان هو أمامي يلتفت إلي كل خمس دقائق فابتسم له دون تفكير رغم كل الحزن والخوف المختلطين داخلي. إلى جانبه كان يقود السيارة شاب أسمر بذراعين ثابتتين، بينما توسطتنا بندقية كلاشينكوف بمخزن ممتلئ الطلقات، أخافتني أكثر مما زرعت في قلبي الطمأنينة.

بعد وصولنا بنصف ساعة، لاحت لنا سيارة بيك آب بيضاء بصندوق خلفي مكشوف قادمة من طريق ترابي بعيد. مثيرة عاصفة من الغبار خلفها، وزوبعة من الأسئلة في ذهني. هل أبي داخلها؟ أهو حي أم أنهم سيعطونني جثة؟ هل سأتسبب بمقتل رجل آخر الآن هنا؟ حاولت أن أزيح عيني هرباً من الأسئلة المتسارعة لأرى سائق التاكسي الشاب قد سحب مسدساً فضياً من حزامه، وعيناه لا تفارقان عاصفة الغبار التي تثيرها سيارة البيك آب وراءها، وليضع رصاصة في بيت النار بعد أن أزال قفل الأمان عن زناد السلاح. توقفت السيارة البيضاء بعيدة بعض الشيء عنا، ليترجل منها أربعة رجال ملثمين، تقدم أحدهم نحونا بخطوات واثقة. نزل هو من أمامي مغادراً السيارة ومتوجهاً نحو الرجل الملثم ليلتقيه في منتصف المسافة، لم أسمع حديثهما من بعيد، وحين التفتَ إلي فجأة هممت من فوري بالنزول لكن كف السائق الأسمر الضخمة قبضت على ذراعي بقسوة مانعة إياي من مغادرة السيارة. صرخت، طلبت منه أن يفلت ذراعي، توسلت إليه، بكيت، لكنه بقي صامتاً واجماً كرجل حجري. من بعيد رأيته يعود نحوي، وما أن وصل حتى أخذ من حقيبتي الكيس الذي يحوي مبلغ الفدية، مكتفياً بمنحي إيماءة رأس لا أعرف

إن كانت تطمئنني، ورافضاً أخذ قنبلة يدوية عرض عليه سائقنا أن يأخذها كنوع من الاحتياط. هنا فقط فكرت بأنه بلا حماية من أي نوع.

أحصى الرجل الملثم المال بعينين خبيرتين دون أن يخرجه من الكيس، ودون أن يزيح لثامه. ومن ثم أشار لرفاقه بيده فرموا من صندوق البيك آب شوال خيش كبير ذو خط أحمر من النوع الذي يطلق عليه في القرى اسم «عِدْلْ أبو مِيْلْ». كان داخل الشوال يتحرك بعنف مصارعاً الظلام الذي يحتويه، ذاك بث في قلبي بعض الثقة بأن والدي على قيد الحياة داخله. أردت أن أفتح باب السيارة لأجري نحوه بكل قواي، لكن يد السائق الصلبة قبضت على ذراعي بقوة أكبر، لم تفلح معها جميع حركاتي الهوجاء للتملص منه والانفلات راكضة نحو أبي.

انطلقتْ سيارة البيك آب مبتعدة بسرعة، ومخلفة عاصفة غبارية خلفها حجبت قرص الشمس المشارف على المغيب وراء حدود البلاد. التفتَ نحوي من حيث كان يقف، بينما كانت عينيّ مثبتتين في الشوال الذي لم يتوقف عن الحركة، وكما لو أنها إشارة، أفلتَ السائق كفه الصلبة محرراً ذراعي لأنطلق أجري نحو أبي وأنا أصرخ:

– بابا.. بابا..

كان ما يزال واقفاً في منتصف المسافة ما بيننا وبين الشوال، فشدتته من يده عندما وصلت إليه ليركض معي نحو أبي، وما أن وصلت حتى ارتميت على الشوال لأشق بأظافري ألياف الخيش الثخينة. ارتمى قربي ليساعدني بتحرير أبي حتى سالت الدماء من أيدينا ونحن نمزق القماش الخشن، وفجأة انطلق من جوف شوال «العِدْل أبو مِيْل» غزال صغير بلون غُباري محمر، ليجري فَزِعَاً من حرية غير منتظرة في الفضاء المتسع لصحراء بلا حدود، بينما كانت الشمس المحمرة تشيعنا بآخر أشعتها، صابغة زرقة سمائنا بلون برتقالي حزين. أخرستني المفاجأة، ووقف هو إلى جانبي. نحيب حزين خافت، أتى من مكان ما لا أعرف إن كان داخلي، سمعته وأنا أقبض على كيس الخيش الخشن الفارغ من أبي. استندت على ساقه متمسكة بها، فانحنى علي واحتضنني. كان هذا بعض الأمان الذي أحتاجه ونحن نجثو وسط هذه الصحراء القاحلة الواسعة، دون أن ينفلت من عيوننا الغزال الراكض كوليد جديد خرج للتو من بطنها.

احتضنته ولم أقل شيئاً، لم تكن الكلمات ما أحتاج، بل بعض الدفء الإنساني. غير بعيد عنا وقف السائق الأسمر متكئاً على سيارته وهو يدخن سيجارة محاطاً بدخانها الكثيف، وعيناه تتابعان هذا الغزال الذي يجري حولنا في كل اتجاه، بحثاً عن وطنه الضائع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

26

«حضرتُ ولم أجدك.»

كانت تلك العبارة مكتوبة بأحمر الشفاه على بوستر فيلم «أحلام المدينة» المُلصق على باب شقتي من الخارج. قرأتُ العبارة بعينين زائغتين قبل أن أدخل منهياً مسائي التائه في المدينة، ومخمناً أن مروة هي من كتب هذه الجملة لا بد. حاولت أن أتذكر لون الروج على شفاه تلك التي تستطيع أن تضحك في وجه المدافع كلها، لكن ذلك قادني إلى لارا بابتسامتها البعيدة كنورس مهاجر، بشفتيها اللتين كانتا توقظاني كأمير نائم في غابة مسحورة. لارا ليست هنا وانتهى الأمر! كان علي أن أطردها خارج رأسي المثقل. هل هي رند؟ لكن لرند شفتين متشققتين كأرض عطشى وعاريتين كروحها. ومع ذلك قد تكون هي، بخصب عينيها الخضراوين كغوطة. هاجمتني صورة شفتي حنان بلونهما الكرزي مزيحة من خيالي ضحكة رند. أتكون هي؟ حنان التي تكنز الحياة كتاجر جشع، وتخبئ الحزن بعينيها العسليتين كمحتكر ماكر. لكن إن كانت هي، فلم لم تتصل بي؟ هل هذا بحث عن رومنسية رمتها حنان خلفها منذ زمن طويل، ولم تشعر بقيمتها إلا اليوم؟ أم أنه القلب الذي جعلته الحرب أكثر توقاً لأن يرتوي؟

تهتُ في متاهة الأسماء دون أن أستدل على صاحبة الشفاه، فرميت بنفسي متهاوياً من تعبي على الصوفا الحمراء التي ضمتني منذ بداية الحرب كأنثى مخلصة، دون أن تحتج يوماً على بقية الإناث اللواتي قاسمنني إياها. ملتُ برأسي للخلف فرأيتها قرب الباب، رأيتهم، حنان، لارا، رند، مروة، وكل الأسماء التي احتوتها روايتي، أو تاهت في طيات السرد. نهضت متهالكاً، لأقترب وألمس بأصابعي الأسماء المكتوبة على الورقة الملصقة على حائطي، وأنا أقرؤها واحداً تلو آخر، كما لو أني أحييها من موتها بترتيلي. لكن اسمي ليس مكتوباً، أنا الذي هو الآن هنا، لستُ ميتاً بل أنا حيٌّ، وإن لم يكن اسمي هنا معكم. أنا أنتم. أنا الورقة الملصقة على الجدار بأسمائكم.

وضعت راحة يدي على حبر الاسماء لأحميها من تساقط مفاجئ، فسقطت على الأرض قصاصة صغيرة مطوية كانت موجودة خلف الورقة. ألم تكن هذه هي القصاصة المطوية التي وجدتها في معطفي الأسود ذلك اليوم قبل ذهابي إلى دمشق القديمة؟ تذكرت القصاصة التي أعطتني إياها هلا في الحلم. فتحتها، كان قد كتب لي عليها: «النَّاسُ نِيَامٌ، فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا.»

*

المهند

11.8.2020 – 26.3.2017

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه) ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

محتويات

عن الرواية..

الإهداء..

1

أوراق الرواية

2

3

4

5

6

أوراق الرواية

7

هوامش

8

9

هوامش

10

11

أوراق الرواية

12

13

14

15

16

17

أوراق الرواية

18

هوامش

19

20

21

22

23

أوراق الرواية

24

25
أوراق الرواية
26